جَفول

وقصص أخرى



ميلاد الحصادي

مجلس الثقافة العام

جفول وقصص أخرى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

جفول وقصص أخرى

ميلاد الحصادي

الناشر

مجلس الثقافة العام

اســـم الكـتاب   جفول وقصص أخرى
اســـم المؤلـف   ميلاد الحصادي
سنـــة النــشـــر   2008 م
رقـــم الإيـــداع   799 / 2008 م
الـترقيم الـدولي   978 - 9959 - 38 - 722 - 6

تـصميم الـغـلاف   علي العباني
لــوحـــة الغلاف   بشير حمودة
التنفـيذ الفنـــي   دار قباء الحديثة ـ القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات ـ سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فــرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فــرع بنغــازي - الفويهات الغربية ـ الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@Yahoo.ca

الإهــــداء

إلى روح أمي اخويره القهواجي

مواسم الفرح ... وزيت مصباحي

في عتمة الورق ... شمال الروح

إذا اشتد عصف الريح

عندما يحتويك الحزن

حينما بدأ صوت المطر يشكّل على زجاج النافذه سيمفونية حب رائعة ، وتلوح عبر الأفق .. السحب السوداء تحجب عنك رؤية البعيد .. تنظر عبر سحابات دخان سيجارتك المشتعلة إلى الأفق .. وترحل مع الطيور الهاربة إلى أوكارها من المطر .. تطفق تحلم معها بالحب والدفء والحنان وترحل عبر سحابات دخانك المتصاعدة إلى مدن لا تعرف لها أسماء وعوالم لا تعرف لها مواقع ..

معلناً فى حلمك بالحب تلغي كل الحواجز ويعلن ميلاد الإنسان.. تحس برعشة في جسمك .. تتمنى أن تضم في حضنك كل أحزان هذا العالم .. وتتمنى أن تغفو على صدر مملوء بالحب والحنان وأن تسافر في عيون لا تعرف إلا الحب والأماني الطيبة.... تحلم ياصديقي بكل أصدقائك الطيبين التائهين على أرصفة الغربة أو الضائعين في متاهات الحياة .. وترجع بك الذاكرة إلى زفاقكم الضيق ومصباحه العتيق وتستعرض وجه كل الرفاق وتتذكر ساعات رحيلهم نحو الصحراء .. عبر البحار إلى مدن الصقيع العنيفة والشمال البارد .

ينساب صوت فيروز يغني .. تعانق معها صورة لبنـــان القتيل وبيروت الملطخة بكل دماء الأبرياء .. وترن في أذنـــك صيحات الموت والرماد والانهيار ..

يلفظك حلمك إلى الشارع .. وترتمي في أحضان مقهـــى منزوٍ مع مجموعة من الأصدقاء حول أكواب القهوة .. وصوت المذياع يصرخ بإحدى أغنيات أم كلثوم .

فيما طفق أحدهم يحدثك عن آخر رحلاته إلى أوروبا وعن مغامراته النسائية هناك في (أثينا ووارسو وروما) يخرج لك من جيبه مجموعة من العناوين والصور ويحلف لك بأنه لم يشاهد في حياته أجمل من وارسو .. يتدخل آخر في الحديث ليؤكد بكل قـــوة بأن أثينا أجمل المدن .. وتصرخ أنت في داخلـــك بلفـــائف التبـــغ والليالي الحمراء .. حجبوا عن الحب معنى النضال .

فيما طفق أحدهم يحدثك بأنه يفكر في تغيير سيارته والقيـــام برحلة طويلة حول العالم .. تنظر إليه بإمعـــان وتـــنهض مـــسرعاً مخترقاً سحب الدخان ومقاعد المقهى الحزين لتجد نفسك وحيداً مـــع سيجارتك وصوت الأمطار وأحلامك بالحب والدف والحنان.

وتقودك الوحدة إلى جدد تطرق الباب وتدخل بكل ســـرية وحذر وتجلس معهم حول زجاجات (المقطر) ويبدأ الحـــديث يطفق أحدهم يبكي لأن من يحب من تتزوج غداً ويبدأ آخر في

ترنيم أغنية شعبية حزينة يلتفت إليك آخر يسألك عن آخر ماكتبت وعندما تجيبه بالنفي .. ينطلق يحدثك عن (نجيب محفوظ) و (حنا مينا) و (فهد اسماعيل فهد) دون أن تفهم كلمة مما يقول وحين يشعر بأنك غير مستعد للنقاش يدير وجهه عنك ويردد مع صديقه أغنية شعبية حزينة ...

تحس بالضيق وتشعر وكأن الغرفة تطبق عليك تحاول الاعتذار والرحيل غير أن أحدهم يصر على بقائك وتحت إلحاحه تضطر إلى البقاء .. تنتهي السهرة ترتمي في أحضان شوارع مدينتك القاتمة .. تشعر بنفسك وحيداً مع الريح والمطر ونباح الكلاب الضالة وسيجارتك اللعينة .. تحس برعشة في جسمك وتغمض عينيك بقوة وتتمنى في تلك اللحظة أن ترتمي في أحضان حبيبتك التى خطفتها مواسم الفقدان وتشعر بشوق جارف نحوها ... وتحلم بأنك تعانقها وتتمنى أن تعود صغيراً .. تعانق أشجار الموز وكرة الشراب ومستنقعات الزقاق تحلم بأنك تتسلق الجدران وتلعب (الغميضة) وتتوسد ركبة جدتك في ليالي الشتاء الباردة وهي تحكي لك عن (خود) و (شمس بين حطتين) .. تفيق من حلمك على نباح كلب .. تشعر بالبرد يلفح وجهك تضم أطراف معطفك وتبتلعك الشوارع من جديد مع الرياح والمطر ونباح الكلاب ..

1980 / 3 / 15

فـقدان

تمدد على حصيرته المتآكلــه وســط المنــزل .... و أدار بصره في كل الاتجاهات شاملاً بنظرته كل أنحاء البيت ... لأول مرة منذ عشرين عاماً يشعر بأن البيت واسع عليه وبأنه مــوحش وكئيب ومظلم ... لأول مرة يشعر بعمق الفقدان في نفسه ، و بأنه غريب ووحيد ، و بأن الحياة بــدونها لا تــساوي شــيئاً ... أدار بصره نحو الباب .... رآها تمد يدها نحوه ... تخلع عن كتيفيــه معطفه القديم ، وما أن يجلس حتى تمد له بصفرة الأكل .... كان يأكل وهي تراقبه بعينيها ، وعندما يهم بالنهوض تمد لــه بوعــاء الماء ليغسل ، ومن ثم تبدأ في إعداد الشاي فيما طفق هو يــشعل سيجارة تلو الأخرى ويسعل (نقص من الدخان راهــو ايــضرك وأنت صحتك بالهون يا سي رمضان) ثم تمد له بطاسة الشاي.... عشرون عاما من الصبر والحب والحنان ... من أجلهــا فــارق الأهل و الأقارب .... كم من مرة نصحوه أن يتزوج غيرها حتى ينجب طفلاً يملأ حياته ، لكنه يرفض لأنه مؤمن بأن هذه الأمــور قدر مكتوب ، و عندما يئسوا منه تركوه في حاله لم يعد أحد يسأل عنه ... معها لم يكن يشعر بالغربة، ولم يكن للفراغ طعم في فمه، أما اليوم بعد أن دقت ساعة الرحيل ، فالبيــت مــوحش ، الــدنيا

مظلمة ... نهض سي رمضان اتجه صـوب حجرتهـا ، رآهـا متمددة على فراشها تصارع لحظات المـوت الرهيبـة، فتـذكر وصيتها له : (رد بالك من روحك راهي الدنيا صـعبه وملهـاش أمان) خرج من حجرتها مهرولاً إلى وسط البيت ... رآها تجلس عند البئر تغسل بعض الملابس ... غطى وجهه بيده وهز رأسـه بشدة ، وعندما فتح عينيه وجدها مازلـت جالـسه هـرول إلـى الشارع، وعبر أصوات السيارات وضجيج المارة انطلقت صرخة عالية ... تجمهر الناس : لا حول ولا قوة إلا بالله ... قالها أحـد المارة و صاحب السيارة على وجهه سـحنه الاصـفرار : (يـا جماعه الرجل جاني بروحه... أتقول يبي ينتحر).

وسي رمضان متمدد وسط الشارع و الدم ينـزف مـن رأسه ، وعلى شفتيه ابتسامه كأنهـا ابتـسامة اللقـاء ... لقـد استعجل الرحيل نحو محطتها وها هو يصل.

درنة 1981

اللحظة الرهيبة

أحسّ بوقع الشمس على رأسه عمودية وقف قليلاً مسح العرق المتصبب على جبينه واشتاق إلى لحظة ظل في عمق هذه الصحراء ابتلع ريقه ، كان الظمأ يزحف رويداً إليه تمنى في تلك اللحظة لو أنه في بيته ..

لعن الصحراء والشمس ونفسه .. تقدّم ببطء أحس بلفح الرمال الساخنه على أصابع رجليه التى برزت من ثقوب حذائه البالي أنزلها ببطء شديد على الرمل .. ضغط على أسنانه حتى تتعود رجلاه الحرارة القوية .. تقدم بخطوات بطيئة .. غاصت رجلاه أكثر في الرمل الحارق والشمس ترسل أشعتها العمودية على رأسه .. العرق يتصبب على جبينه ويدخل عينيه ويحجب عنهما الرؤية .. أحس بحرقة في صدره ... إحساسه بالخوف والحزن والقهر يزداد وعمق حقده على الحياه يزداد .. كل الناس في هذه اللحظات في بيوتهم إلا هو ، يضرب في عمق الصحراء من أجل قطع الحديد المتناثرة من بقايا الحرب العالمية الثانية .. أسقط جرابه على الأرض وأخذ يجره على الرمل تاركاً أثراً واضحاً لتعبه وإرهاقه .. لعن هذا البحر الهائج الذي تبتلع الأسماك الكبيرة فيه السمك الصغير ... تراءى له

خلف السراب الممتد أمام عينيه صورة الحــرب والانفجــارات وألسنة اللهب وسقوط القناع عن وجّه الإنسان وفراق الأحبة .. شعر بغصة في حلقه وتذكّر أصدقاءه الذين رحلوا في جــوف الصحراء بعد انفجار هذه القطع فيهم وتمزيق أجــسادهم إلـــى أجزاء صغيرة متناثرة..

أحسّ بقلبه يسقط والخوف يتسرب إلى نفسه .. فكّر فـــي الرجوع لكن الأجساد الصغيرة المتكومة داخــل تلــك الغرفـــه الحقيرة وجوعهم المتواصل للطعام وبكاؤهم في لحظات الليـــل الرهيب جعلته يتقدم بخطوات مترددة والهلـــع يـــسيطر عليـــه والحذر رافق ارجله المتحركة توقف أمام جسم مخيف يرقد في الرمل كانه حيوان متوحش خرافي من حيوانات ماقبل التاريخ.. تساءل فى رعب كم نفساً كان سيأخذها هذا الجسم المفترس لو انفجر.أخرج عدته وقرر البدء في عمله بأســرع مـــا يمكـــن ليتخلص من هذه اللحظة الرهيبة ..

ازداد انهمار العرق منه ويداه ترتعشان وبرودة غريبـــة تسري في جسمه رغم جحـــيم الـــصحراء الموقـــد .. حـــاول استجماع قوته وإعادة الصفاء إلى ذهنه .. لكن الخوف تزايد .. توقف عن العمل استلقى على الرمال المحرقة وطافت في ذهنه كل ذكريات الحرب اللعينة وتلك الأجساد المتكومـــة وزوجتـــه

المسكينة وذلك اليهودي القذر الذي يشتري منه قطع الحديد بثمن بخس لا يساوي حتى تعب هذا المشوار الطويل.. تمنى في تلك اللحظة أن يطبق على عنق هذا اليهودي فيتخلص منه تجمعت في عينيه الدموع انطلق يبكي بحرقة ليغسل نفسه ويذهب عنها هذا القلق .. نهض جالساً وقرر الشروع في العمل من جديد .

مسح بكّم قميصه المتمزق العرق المتصبب على وجه وامتدت يداه لتفك هذا الوحش الرابض في أعماق الرمل .. ضغط بشدة على أحد المسامير ليقوم بفكه وانزلقت يداه التي يغطيها العرق فانطلقت ألسنة اللهب إلى عنان السماء.والرمال تتاثرت في كل اتجاه أحس بالدينا تدور ودوي رهيب يصم اذنيه ولهب النار يحرق وجهاً غاب عن الوعي فيما كانت صور أيام الحرب تترآى أمام عينيه والدم ينزف من صدره والرمال تغوص بجسده

أحسّ براحه تسري في جسمه وصورة ذلك اليهودي القذر تمتد أمام عينيه شبحاً رهيباً من سحب الدخان والموت والخوف...

1982

عندما يسقط القناع

استيقظ من نومه فزعاً .. فرك عينيه بشدة .. لعن هـذه الكوابيس المرعبة التي تنغص عليه نومه وتجعله في حالة دائمة من القلق والأرق .. ضغط على زر المصباح .. غمره الضوء امتدت يده إلى علبة السجائر .. سحب منها سـيجارة أشـعلها جذب نفساً قوياً.. نظر إلى أعلى مراقباً سحب الـدخان وهـي تتصاعد استقرت عيناه على سقف الحجرة .. رأى صرصـاراً متجمداً وقد أفزعه الضوء المفاجئ .. نظـر إليـه باشـمئزاز وتساءل في حيرة .. لماذا خلق الله الصراصير ؟!

جذب نفساً من سيجارته .. أحس بالراحة تـسري فـي جسمه .. فيما كان الهدوء يخيم على الحجـرة ولا يقطعـه إلا صوت ارتطام حبات العنب الفاسدة بأرض المنزل ، أو عـواء كلب قادم من بعيد .

امتدت يده إلى ورقة بجانبه وأمسك القلم بحنـان فـرك عينيه بشدة حاول أن يكتب .. بعض الكلمات

عودي إليَّ فإني أحتاج إليك ..

عودي إليَّ فإني أحتاج إليك ..

عودي إلى فإني أريد امرأة تبعث فيّ الدفء ،
وتشعل جذوة الشوق الخابية

رمى بالورقة إلى جانبه فيما كان وجهها يلوح أمامه عبر سحب الدخان الكثيف وابتسامتها تسافر به إلى عوالم أرحب من هذه الحجرة الضيقة قطع عليه تفكيره صوت سيارة مسرعة تذكر والده الغائب منذ فترة بشاحنته الكبيرة أحس بشوق جارف نحوه .. تمنى أن يعود .. أحس نحوه بحنان مفاجئ .. لقد طالت غيبته هذه المرة.. تمنى لو يعود ويرتمي في أحضانه .. شعر بأنه ضعيف وأنه يتهاوى.. طافت برأسه صورة تلك المرأة الطيبة أمه .. ولحظات رحيلها المفاجئ عن هذه الدنيا .. تذكر قلقها على والده حين كان يسافر بشاحنته الكبيرة إلى عمق الصحراء يجتاز المسافات القاحلة والمقفرة .. تذكر تلك المرة التي قرر أن يصحبه فيها إلى عمق الصحراء عندما كان طفلاً صغيراً وبكاء أمه وخوفها الشديد وإصرار أبيه على تعليمه تلك الدروب الموحشة وأسماء النباتات والحيوانات والمناطق شعر بحنين وشوق إلى والده رغم الخصام الذي كان قائماً بينهما عندما أتى والده بتلك الفتاة التي اتخذها زوجة له ومعارضة أهله لهذا المشروع ورفضه هو لتلك الفكرة التي أصبحت حقيقة وهي تنام الآن .. بالغرفة المجاورة وكيف تدخل الأصدقاء والجيران لإعادة المياه إلى مجاريها .. تذكر عودته إلى البيت

عندما شعر بأنه وحيد وخائف مطــارد و تلــك الــدموع إلــى ترقرقت في عين أبيه لحظة اللقاء.

شعر بالعطش يهاجمه فجأة .. تلفَّت حوله لم يجــد كــوب الماء.. نهض من سريره متثاقلاً وفتح الباب واتجه نحو المطــبخ فتح الثلاجة بسرعة .. سكب في جوفه نصف زجاجة من المــاء.. شعر بأنه مازال ظمآن كأنه بقعة رمل لا ترتوي أبدا .. قــرر أن يأخذ الزجاجة معه إلى الحجرة خرج من المطبخ .. قطع المشوار على أصابعه حتى لا يوقظ أخاه الصغير وزوجة أبيــه .. ســمع همهمة تصدر من حجرة أبيه قال في نفسه .. لابــد أن الــصغير استيقظ ما أصعب معاملة الأطفال .. واصل مــسيره والــصوت يزداد ارتفاعاً ... تساءل في حيره هل عاد أبوه من الــسفر وهــو نائم .. ؟ استبعد هذا الخاطر فلا بد أن يوقظه عندما يعــود لكــي يطمئن عليه ولكي يفرغ الأشياء التي جلبها معه في رحلته .

الصوت يزداد .. والهمهمة ترتفع وهو واقف في مكانــه بدأت الشكوك تساوره .. اقتــرب أكثــر .. الــصوت يــزداد ارتفاعاً.. وقف في مكانه متجمداً كانت لحظــة مــن الاختيــار الصعب والصوت يرتفع في أذنه وضحكة نسائية كالتي يسمعها في الأفلام العربية أيقظته من ذهوله قرر أن يقتحم الحجــرة .. نظر من ثقب المفتاح ... تراجع إلى الوراء وأسند رأسه علــى الجدار وأخذ في الانحدار .. جلس على الأرض وقبض بــشده

على زجاجة الماء التي في يده حتى لا تسقط .

أصبح الموقف أكثر خطورة أغمض عينيه بــشده حتــى يبعد الدوار الذي أصابه كانت زوجة أبيه أمام عينيــه عاريــة وعشيقها يدفن رأسه بين نهديها .. نهض بــصعوبة وقــرر أن يقتحم الحجرة .. تراجع إلى الوراء وانــدفع كــالمجنون نحــو الباب.. سقط من شدة الصدمة والباب مازال مقفــلا .. كــرر المحاولة من جديد وبقوة أكثر .. فتح الباب فجأة وجــد نفــسه مرمياً وسط الحجرة والشخص المجهول يفــتح بــاب المنــزل ويهرب .. خرج إلى الشارع مهرولاً .. لم يجد أحداً سوى كلب قد انزوى في إحدى زوايا الزقاق .. كان يتنفس بصعوبة ويداه ترتعشان .. رجع إلى الداخل كانت زوجة أبيه كما تركها عارية ونهداها بارزان إلى أعلى وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامه تحدً أحس بالمرارة تغوص في حلقه والعطش يهاجمه من جديــد .. صعد الدم إلى رأسه واجتاحته موجة من الغضب .. قبض يــده بشده.. كانت أمامه عارية وجسدها ينبض بالــشهوة والجــوع "صفعها بقوة فارتمت على الأرض والابتسامة علــى شــفتيها " تمنى لو يطبق على عنقها لكنه تراجع وقرر أن يخبر والده بما حدث في هذه الليلة.

عاد إلى حجرته يائسا .. متهالكاً .. ارتمى على ســريره أشعل سيجارة وجذب منها بقوة ونظر إلى الصرصار المتعلق في

السقف وتساءل " لماذا خلق الله الصراصير والمرأة ؟! "

نهض في الصباح ابتلعته الشوارع والأزقه .. تمــرغ فــي التعب قتله القلق .. لم يجد مكاناً آمنا قرر العودة إلى البيت وجد أباه قد عاد.. دخل إليه في حجرته " سلَّم عليه أبوه في فتور.. قال لأبيه:

لي معك حديث .. هل تسمح بالجلوس ؟

لكن أباه صرخ فيه لا أريد أن أسمع منك شيئاً .. اخــرج من هذا البيت ولا تعود إليه مطلقاً .. لو أني كنت أربي كلباً ما فعل ما فعلت .!

حاول أن يتكلم ولكن صفعة من أبيه أسكتت في قلبه كــل الكلمات.

حمل حقيبته وخرج رآها تقف أمام الغرفــة والابتــسامة نفسها على شفتيها .. ابتلعه الشارع ندم كثيراً لانه لم يقتلها تلك الليلة فقد أخبرت آباه بالقصة لكن كما تريد هي فقد ادعت انــه حاول اغتصابها أثناء غيابه.

كان الشارع مظلماً .. والمدينة مقفرة .. والسكون يخــيم عليها .. ولا يقطعه إلا عواء الكلاب .. وأصوات الريح وهــي تعبث بأوراق القمامة والأشجار حذاء يقطع الشوارع في خوف ويأس وانهيار.

30 / 3/1982

لحظات الموت البطئ

أزاح أغصان الأشجار من أمام عينــه .. جــذب بــشدة غصنا صغيرا .. امتد أمام وجهه فحجب عنه رؤية الطريــق.. اشرئب بعنقه إلى أعلى .. حتى يرى الطريق من بعيــد .. لــم يشاهد احدًا .. أحس بتعب من وقفته الطويلة والخدر يسري في رجله اليمنى تغير بثقله على رجله اليسرى واحتضن بندقيته ...

تلفت حوله في خوف .. أحس بدبيب أوراق الشجر وبــأن الأشجار عيون تراقبه ، شعر بحركة غريبة خلفه .. التفت فجــأة وقد امتلكه الرعب ... كان كلب ضال يسير عبر الغابــة الممتــدة على جانبي الطريق .. نظر إلى ساعته فيما كان الليــل يزحــف رويدا رويدا (مازال هناك وقت) قال في نفسه .. قرر الجلوس.. جذب حجرا كبيرا .. جلس عليه بحيث يستطيع أن يشاهد الطريق من مكانه .. تحسس بندقيته وصوب في الهــواء.. كــرر عمليــة فحصها مرات ومرات عديدة حتى اطمأن إلى كل شئ ..

سمع صوت المؤذن ينساب عبر البراري الواسعة .. تهامس في داخله صوت غريب .. (هل ما يقوم به الآن صواب)

نهض من جلسته ومسح بيده على وجهه .. كأنه يطــرد

النعاس من عينيه .. وتعال صوت آخر في داخله .. (إن من قتل أباك يجب أن يقتل .. من جعلك يتيماً" تعانى الجوع والبرد والتشرد يجب أن يقتل .. إن من قتل في أمك عنفوان الربيع يجب أن يموت) .. اتكأ على جذع شجرة ونظر إلى السماء لاحت له صورة أبيه ومن عينيه يشع نورا" غريبا" .. احتضن جذع الشجرة بقوة فيما أحس بحركة على الممر الصغير ، جذب بندقيته واحتضنها بقوة وصوب نحو الممر قال في نفسه .. (لماذا جئت في هذه اللحظة يا حاج على .. كنت أريده وحده.. كنت أريده أن يلاقي مصيره وحده أريده أن يعيش تلك اللحظات العصيبة التي مر بها أبى منذ عشر سنوات.. كنت أريده أن يتخبط في دمه دون أن يعلم به احد .. أريده أن يحس بعمق الفقدان واليتم والخوف كما أحس به والدي أحسست به أنا).

ولكن لابأس .. لن تستطيع أن تفعل له شيئا يا حاج على.. رصاصة واحدة وينتهي كل شيء .. وتصبح هذه الليلة من حكايات قريتنا على مر السنين ..

احتضن بندقيته بشدة .. وصوب نحو الهدف .. كان عثمان يختال ضاحكا" .. وبجواره الحاج على .. والطريق يلفه السكون ولاشيء سوى القمر وحفيف أوراق الشجر وبندقية تتربص به .. وصدر غافل تنتظره لحظة الموت دون أن يدري..

أحسَّ برعشة تنتاب يده .. ضغط على البندقية بشدة أحكم التصويب .. والرعشة تزداد .. والليل يزحف بطيئا" وصـــوت رصاصة تخترق سكون الليل .. وصرخة تنطلق من بئر عميقة يمتد فيها الدم أنهارا من الخوف والقحط .. وصوت قادم مـــن عمق الغابة يصرخ في خوف أجبني .. يا حاج على .. أجبنـــي يا حاج على .. تسمر في مكانه .. قتلته المفاجـــأة .. ســـقطت البندقية على الأرض .. ولم يحرك ســـاكنا" .. فقـــد أصـــابت الرصاصة الحاج على بدلا من عثمان.

انتبه على يد صديقه وهي تهزه .. تلفت حولـــه كانـــت الزنزانة يلفها الظلام إلاّ من نور خافت ينبعث مـــن مـــصباح الممر نظر حوله في ذهول .. اســـتقرت عينـــاه علـــى ســـقف الزنزانة .. رأى وجه أمه خلف ضباب الدموع تلك الأم التي لم تزره إلا مرة واحده وقد سمع إنها تزوجت مـــن عمـــه الـــذي حرضه على قتل عثمان فقتل الحاج علي.

أسند ظهره على جدار الزنزانة الباردة وعلَّق نظـــره فـــي السقف فيما انحدرت دمعتان من عينيه أحس بحرقة تغوص فـــى القلب وتمنى في تلك اللحظة أن يحتضن الموت فقاتل أبيه مازال حيا" وأمه تزوجت وهو وحيد يعاني اليأس والموت والحرمان.

جفول ...

{1}

الطريق ... الليل .. الجبل .. الشوق .. درنه !! رائحة الشيح البحر .. الظلام .. الحب .. الخوف .... أشياء تداخلت في عقلي

منذ لحظة الرحيل نحوك .. منذ أن بدأت مسيرة العودة .. وحدي الطريق مقفر موحش ومخيف ، والبحر يأتي من بعيد يقترب ثم يختفي ، والطريق يتلوي كأفعى هندية من العصور الغابرة.

وحدي والطريق يمتد ، وصوت فيروز ينبعث مخترقاً سكون الليل ، وأضواء درنه تتلألأ من بعيد ، الجبل يخيم ساكناً حولها.

وحدي ولحظة الشوق تزداد وكلماتك ترن في أذني وصوتك يأتي منسابا" مع النسمات القادمة.

منذ أن أحرقت وجهي شمس الصحراء ، وأنت معي لم يفارقني وجهك أبدا" منذ بدأت رحلة عذابي نحو الأعماق تاركا" درنه وكل مافيها محاولا" أن أنسى لحظة الحب والشوق والأحلام وحدي قررت الرحيل وحدي آمنت بأني لاستطيع أن أعيش منذ أن فارقتك.

الجبل يمتد على مرمى البصر .. وحدي في تلك اللحظة أقف عليه أستنشق هواءً نقيا" ، وعبيرا" اشتقت إليه طويلا" كل الأصدقاء أحبوك .. كل رفاق رحلة العمـل فـي الـصحراء عرفوك رسموا صورتك على الرمل نادوا باسمك فـي ظلمـة الليل غنوا لك أجمل أغاني الحب ، أصبحوا يعرفونك أكثر منى أحبوك أكثر منى .. علقوا اسمك فوق رؤوسهم سـهروا معـي الليالي،و أنا أتأمل لحظة ظهور القمر ..

أحد الأصدقاء بعث إليه أهله (لقد رزقت بمولودة مـاذا تسميها؟) .. على اسمك سماها .. قال لهم : (جفول).

يوم ودعوني حمّلني كل واحد منهم هدية إليك ، وفى تلك الليلة ، أخرجوا كل ما يملكون من مؤنة ومـشروبات أقـاموا عرساً في عمق الصحراء أضاءوا الأنوار أطلقـوا الزغاريـد والصيحات واجتمع البدو الرحل وجاءت قوافل السيارات القادمة إلى الجنوب ، والعائدة إلى الشمال ومع تباشير الصبح ودَّعوني بقبلاتهم.وأجمل الأماني إليك...

"جفول" أنا فوق درنه أنظر إليك أراها في صورتك أحس بأن شلالها شعرك وانسام هوائها عطرك ، طيبـة أهلهـا ... ابتسامتك.

{2}

عرفتها منذ أن استطعت إجتياز عتبة البيت وتطأ قـــدماي أرض زقاقنا الضيق والطويل الذي تكثر فيه المستنقعات عندما يأتى الشتاء ويهطل المطر وتختلط رائحة الطين بروث البهـــائم وزهر الليمون.

تقاسمنا "سوياً" لحظات اللعب الجميلة تمرغنا في الوحـــل تلطخنا بالتراب اغتسلنا سويا" في مياه (الساقية) تسلقنا" أشجار الموز والليمون والتين ... بنينا بيوتا" من الطين .. نصبنا" فخاخا" للطيور الجميلة .. طاردنا الكلاب .. ولعبنا الكرة سويا" لم أحس يوم بفرق بيننا .. كنت دائما" معي صديقتي ورفيقتي.

كان يوما صعبا ذلك اليوم الذي قررت أن أصعد فيه إلى النخلة لأحضر لك الرطب وما أن بدأت فـــي الـــصعود حتـــى تسمرت قدماي من شدة الخوف ولم أستطع النزول وأخذت أبكى بقوة وجاء أبى ، ونلت علقة ساخنة .. رأيتك تختبئين في عش الموز والابتسامة على شفتيك.. تمنيت في تلك اللحظة لو أطبق على عنقك لكنى تراجعت.

وامتدت الأيام وانطلقنا إلى المدرســـة تقاســـمنا" ســـويا"

الدرج، وحلوى المـــدرس وعــصاه ولعنـــات النـــاظر وبـــائع (السندوتشات) وشتائم أصحاب الدكاكين في الـــشارع الكبيـــر وأصحاب المزارع (والجنانات) لأننا نقطع عليهم (الـــساقية) ذلك المكان الذي نحب أن نجتمع فيه ســـويا" لنغتـــسل بمائهـــا ونصطاد الضفادع الصغيرة ، ونصنع مراكـــب مـــن الـــورق ونسرق أصابع الموز ..

مازلت أتذكر الحرس البلدي وأتـــذكر تلـــك الـــضربات الموجعة التي نلتها لسرقة الخضروات والفاكهه مـــن الـــسوق المركزي .. كنت شقية ومتعبة مع ذلك ظللت احبك ، واخترتك رفيقة غزواتي على الأزقة الأخرى.

تمرُّ الأيام والساقية تزداد اتساعا" وأنا وأنت نسبح ســـويا" يجرفنا تيارها أحلم بأن أكون بحارا" يشق عباب البحر المـــتلاطم وأنت تنتظرين على الشاطئ الآخر والقلق يرتسم على وجهك.... تضحكين من أحلامي .. وتصرخ أمي أن أعود لأحمل العجـــين إلى المخبز ، ونركض سويا" تحـــت المطـــر ، ونغـــوص فـــى المستنقعات والسحب القاتمة تحجب عنا رؤية الأشياء ..

وجاء يوم افتقدتك كثيرا" ذهبت وحـــدي إلـــى المدرســـة جلست ساهما" فى الفصل لم أكلم أحدًا ولم أسمع أحدًا كان يومًا

كئيبا" وثقيلا" واستغرب المعلم ذلك ، وعندما عـــدت انتظرتـــك على (الساقية) ولم تأت وفى البيت أخبرتنى أمى بأنـــك لـــن تخرجي بعد اليوم من البيت ، ولن تذهبي إلى المدرســـة ولـــن تلعبى مع الصبيان ..

وحدي عرفت السبب كان جسدك ينمو أمام عيني تظهـــر أشياء غريبة تكور صدرك قليلا كبرت أردافك ما عدت طفلـــة صغيره قالت أمي : أصبحت جفول امرأة متـــى تـــصبح أنـــت رجلا، وتكف عن هذه الألاعيب الشيطانية .

كرهت اللعب والساقية والمدرسة ، ولولا خوفي من أبى ما ذهبت إليها أبدا" ما عدت أحب شيئا" إلا تلك اللحظات التـــي أجلس فيها إلى جوارك على جذع النخلة المقطوعة أمام جدول النعناع عند العصر ..

تغيَّرت كثيرا" أصبحت أعقل من ذي قبل ، وعندما لمست يدك أحسست لأول مرة بشعور جديد وبأن قلبي يدق بعنـــف ، والعرق يتصبب مني في تلك اللحظة فقط أدركت أنك أصبحت شيئا" آخر بالنسبة لي ... ما عدت رفيقـــة طفـــولتي ، ولعبـــي وشقاوتي بل أصبحت حبيبتي وحلمي ولحظة وعي.

{3}

قالت أمي تخاطب أبى : لقد أصبح رجلا"

قال لها : عليه أن يجد في دروسه وأنا أزوجه (جفول)... أشياء كثيرة تداخلت في رأسي أحسست في تلك اللحظة أنني أقفز فوق السنوات القادمة من دروسي ما عاد يشغلني في تلك اللحظة عن دروسي سوى لقائك على جذع النخلة بجوار جدول النعناع ... لم يستطع أبوك أن يمنع لقاءنا.

كان يعتقد بأننا صغيران على الأشياء التي تدور في رأس الرجال ، أصبحت حلمي ومحطة قطاري منطلق وسط السحاب والضباب والخوف أصبحت حنيني إلى الحب والشوق والأماني الطيبة.

وفى لحظة واحدة انتهى كل شئ ... غادر أبي هذه الدنيا أصبحت وأمي وحيدين فأحسست بأن البيت ولأول مرة موحش ومخيف وأن الدموع التي سالت من عيون أمي قد جرفت كل الأيام الجميلة وكل اللحظات الرائعة التي عشتها في طفولتي ، وحلمت بها في مستقبلي.

وفى مساء ممطر وكئيب انفتحت في السماء ثقوب ولم

تكف الريح عن العواء ... قالت أمي : وهي تجلس قرب موقد الفحم المتوهج (لقد أصبحت رجلا) وعليك منذ الآن أن تتحَّمل المسؤولية ...

أحسست في تلك اللحظة أن كل شئ في داخلـــي ينمـــو ويكبر وأن أحلامي الجميلة تبخَّرت وأن الطريق الممتد أمـــامي طويل ومظلم... تراجعت عيناي عن صفحات الكتـــاب الـــذي أطالعه وقلت في حزن (من الغد سأبحث عن عمل وســـأترك المدرسة مؤقتا" حتى إذا ما استقر الأمر عدت إليها من جديد.

كانت الدموع قد تجمدت في عيون أمى رغـــم محاولـــة إخفائها لكن توهج حبات الفحم المنعكس على وجههـــا فـــضح الأمر اقتربت منها أكثر قلت لها:

(لا داعي للحزن ستزهر أيام العمر من جديد وســـيكون القادم أفضل من الذى ذهب فقط عليك أن تغرسي غدا" زهـــرة على قبر أبى)

احتضننتي أمي بقوة فيما ارتفع نحيبها واختلط بـــصوت الريح وتساقط حبات المطر.

{4}

أحسست بالبرد ينخر عظامي قفزت إلى سـيارتي فيمـا انطلق صوت فيروز يمزق سكون الليل بأنغامه الرائعة .. لـم أستطع التحرك من مكاني تساءلت في حيرة .. هل هو الخوف من لحظة اللقاء أم أن لحظة احتضان درنه سلبت كل إرادتي...

تزاحمت في خاطري كل الذكريات وانطلق أزيز الـريح في الخارج فيما بدأت حبات المطر تتساقط على زجاج سيارتي توقف عقلي عن التفكير أمام تلك اللحظة الرهيبة التي سـمعت فيها زغاريد تنطلق من منزل جفول ... وعندما سـألت أمـي قالت : (لقد تزوجت جفول .. زوجها أبوها لأحـد أقاربـه) انطلقت مسرعا" نحو جدول النعناع إلى جذع النخلة المقطوعـة وجدتها تجلس وحيدة وساهمة انطلقت نحوى مسرعة وارتمـت على صدري احتضنتها بقوة أحسست لأول مرة بأنها ضـعيفة ومنهارة وأنها تحبني أكثر من أي وقت آخـر بكـت طـويلا" وبكيت أنا ... أحسست بأن الدنيا ضيقة وأن درنـه لا تتـسع لمساحات حزني .

قالت أمي : بصوت واهن وحزين (إنـه المكتـوب ..

تجاوز لحظة حزنك وفكر في المستقبل).

تمنيت في تلك اللحظة أن أصرخ أن أبكـــى .. أن يكـــون القدر رجلا" لصرعته وتغلبت عليه لكنني سكت ... أطرقت أمي برأسها ولعنت الدنيا والمال والظروف وتذكرت في تلك اللحظـــة رحيل أبى.. فيما انكبت أمي على جدول النعناع تحصده.

أصبحت لا أطيق البيت واسترق اللحظات الصغيرة التي أرى فيها جفول وأحبس في حلقي كلمـــات كـــادت أن تمـــوت وأصبح حزني أكبر من أن يحتمل وجاء أبوها قال في صـــوت هادئ: (الزواج قسمة ونصيب .. عليك أن تكـــون عـــاقلا" لا أريدك بعد اليوم أن تقابل جفول أو تكلمها ..)

قالت أمي : (الرجل معه حق .. وأنت عليك أن تجرب الرحيل ربما استطاع أن يغسل قلبك من الحـــزن انطلـــق إلـــى الصحراء فربما ضجيج الآلات والعمل المتواصـــل وصـــحبة الرجال أن تنسيك شيئا" من حزنك)

وأنت قلت لها ...

لا تفكري بي .. أعرف أنك لن تنساني وأنك سترسل لي مع كل قادم ما أحتاجه ، ثم إن المزرعة الصغيرة تكفينى وتسدّ رمقي.

{5}

الصحراء عالم واسع .. قادر أن يحتضن كل أحزان هذا العالم ويحولها إلى لحظة فرح ... والصحراء عالم ينبع بالحب بالحياة بالهدوء .. وسط ضجيج الآلات وحرقه الشمس وصحبت الرجال وغبار الريح حاولت أن أنسى صورتك ... أن أغيب قليلا" خلف السحب الممتدة على كثبان الرمل العالية ... أن أنطلق مع الرجال الذين ضاعوا فوجدوا في الصحراء أمناً لهم .

اعتقدت إني نسيتك .. إلى أن استيقظت ذات صباح فوجدت نفسي أنقش اسمك على قلادة أعلقها في عنقي .. صرخ الرجال فيما أطرقت أنا برأسي إلى الأرض حكيت لهم عنك .. عن جمال عينيك.. عن طيبة قلبك .. وروعة ابتسامتك .. رسمت اسمك على حبات الرمل تساءلوا عن غرابة اسمك .

قلت لهم : كانت غريبة في كل شئ .. كانت تحب أن تكون متفردة .. لم تلعب مع بنات جيلها ولعبت مع الصبيان استحمت معنا في (الساقية) سرقت معنا الخضروات ولعبت الكرة .. تسلقت الأشجار كانت غريبة فى كل شئ أحبك الرفاق.. حزنوا كثيرا"من أجلى .. قال أحدهم حاول أن تنساها..

قال آخر: مثل جفول لا تنسى ...

كادت أن تنشب بينهم معركة لولا تدخلي بينهم .. الجميع أحبك قرروا أن يأتوا إلى المدينة ويدفعوا مهرك لكنني رفضت.. قلت لهم لقد انتهي الأمر .. أه .. يا جفول .. ما أروع أن يكون كل ما تملكه في هذه الدنيا مجموعة من الأصدقاء الطيبين!

جفول يا حبيبتي .. قد وصل مرسال أمي (جفول تطلبك) هأنا في درنة يقترب ضوؤها مني أكثر .. أحس بعبيرها أكثر تحتضني بشوق غريب .. المنازل الأشجار والشوارع والطريق إلى زقاقنا مازال طويلاً وأنا أسير ببطء .. أحس بأن كل شيء في درنة يعانقني.

الزقاق يقترب .. والضوء الباهر يحجب عني الرؤيا والزحام في زقاقنا يقلقني .. أصوات تختلط في داخلي والف خاطر وخاطر يمنع عني الرؤيا أقترب أكثر .. أحسّ بالزقاق يضيق ويضيق .. ويطبق على أضلاعي ويكتم أنفاسي والرؤية تتضح أمامي .. والجميع يقف في مواجهتي كأنهم ينتظرون وصولي وصوت المقرئ ينبعث هادئاً (أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي).

وصوت يصرخ بي (ماتت جفول)

الدنيا تدور .. الأضواء تسقط .. الكراسـي تـتحطم .. الزقاق يضيق .. الأصوات تأتي من أعماق سـحيقة .. العـالم يتلاشى .. صراخ يتعالى .. رجلاي تتجمدان .. تهزني أمـي بعنف .. اندفع إلى الداخل أرى جثماناً مسجى .. أرفع الغطاء.. يلوح وجهك وقد ارتسمت عليه ابتسامة .. تجمدت الـدموع .. أنهار العالم .. أحس بسقف الغرفة يطبق على وأمـي تقـول : (لو بكرت قليلاً كانت تتمنى أن تراك .. كانت تهتف باسـمك في أشد ساعات المرض).

أخرج إلى الشارع .. يستقبلني الليل .. والريح .. وحفيف أوراق الشجر والدموع تنهمر من عيني.

أقف على جدول النعناع فيما كان صوت المقرئ ينساب عبر نسمات الليل هادئاَ وحزيناً.

1983/11

حوارية الحب والموت

- لقد أصبحت فتاة جميلة وخلابة

- أيه

- صدقيني ، أنا لا أجامل .. لقد كبرت بسرعة .. ما أجمل صفاء عينيك!

- حتى أنتَ تغيرت .. غزا الشيب رأسك .. ووجهك امتلأ بالتجاعيد رغم أنك في الثلاثينات من عمرك.

- سنوات طويلة مرت أعتقد أنها أربع سنوات ..

- بل خمس ...

- ما هي أخبار أمك ؟

- بخير .. انتظرت عودتك طويلاً

- والآن ...

- لقد فرحت برجوعك .. وتتمنى ألاَّ تهرب من جديد ..

- أنا لم أهرب .. ولكن هناك أشياء لم أستطع احتمالها ..

- أمي تقول ذلك أيضاً

- والهروب ...

- تعبير استعملته أنا ..

- لاتحاولي أن تتلاعبي بالألفاظ. هل فهمتِ معنى غيبتي الطويلة.

- أنا أفهم جيداً ظروفك ولحظات فرارك المستمر .. من تلك اللحظة لكني أتمنى أن تبقى بيننا ..

- لمـــــاذا ؟!

- أمي تقول طالما أنتَ موجود فنحن نحس باطمئنان.

- والآن.

- نحن أكثر ثقة في المستقبل .. وأكثر قوة ..

*- نورا حبيبتي .. سنوات الغربة لم تغير فيَّ شـــيئاً .. اللحظة والموت هو الذي غيَّر أشياء كثيرة في نفسي .. نورا يا حبيبتي عندما تعلمين بعمق المأساة ستحسين بما فـــي قلبـــي .. كنت صغيرة في تلك الأيام لم تتجاوزي العاشرة على ما أعتقد..

- بل اثنتا عشرة .. لقد بدأت فعلاً.

- حبيبتي لا تلومي رجلاً فقد أعز ما يملك .. فقد أحلـــى

الذكريات و فقد البسمة والفرح في لحظة رهيبة ..

- أمي كانت تعلم هذا ..

- أنا أعرف أمك جيداً يوم تزوجها أبوك كنا صديقين قال لها بمقدورك أن تغيِّري أشياء كثيرة في الا شيئاً واحداً ، صداقتنا أمك كانت تعي هذا جيداً فتعلمت الدرس الأول فلم يكن تعرف سواى ولم يحس الجرح سواها .. نورا يا حبيبتي بودي أن أتذكر كيف عرفته ولكن تلك اللحظة الغريبة لا يستطيع أحد أن يتذكرها لأنها تأتي فجأة مملوءة بزخم الحدث فتلغي كل الأشياء حولك .. لم تربطني به علاقة قرابة ولا عمل ولكن في لحظة وجدت نفسي أعرفه وأعانق ابتسامته وأبكي لحزنه ولم يبكِ أحد أباك كما بكيته .. نورا يا حبيبتي جدك رجل طيب بكيت أمام الناس تمزق القلب حرقة ترددت نغمة الصبر قال جدك : (الصبر كلمة لا يقولها إلا من كان خارج اللعبة) نورا يا حبيبتي تسبقني الأحداث يتلعثم لساني حاولت الهروب.. غادرت كل أماكن الذكريات واعتقدت أني نسيت ولكن ما عدت حتى تداعت من جديد كل الذكريات وكل اللحظات .. نورا يا حبيبتي..

- أرجوك لا تكمل .. أحسَّ بالجرح يشتعل في داخلي .. أنا لم أعرف أبي جيداً .. كنت صغيرة عندما غادرنا .. لذلك لا

أريد أن يفتح في قلبي جرح لا يندمل ..

*- أرأيت يا نورا؟ .. الكل يهرب من صورته .. سواي وأمك.. أنا واثق أنها لن تنساه .. لم تهرب منه ومن صورته.

- وماذا جنت خمس سنوات مرت لا ابتسامة ولا فرحة.. ولا ضحكة من أعماقها أطلقتها .. لاشيء سوى العيش في أعماق الذكريات والنظر إلى دينا عبر ستار من الضباب الكثيف..

- مثل أبوك لا ينسى .. لابد أن يظل محفوراً في الذاكرة.. أمك لم تنظر إلى الدنيا من خلال ضباب الألوان .. في داخلها كان يعيش أمل عظيم أن تراك أنت وأخاك وقد حققتما شئاً ..

- كان يمكن أن تفعل ذلك والابتسامة على شفتيها ، بدلاً من تعذبنا كل يوم ..

- مثل أبوك لا ينسى بسرعة .. منه تعلمت أشياء لا تستطيع أن تفارق عينيك كان أبوك يكبرني بعشرة أعوام أو أكثر قليلاً .. كان يكبرني بعمق التجربة وزخم الاحداث منه تعلمت الحب والصبر .. ، الإيمان ، الفرح والكلمات ، الرائعة... منه تعلمت السفر في عيون الأطفال..

- كان الأجدر أن تعلمها لي بدلاً من أن تظـــل معانقـــاً للحزن والموت والسفر البعيد .. لن تستفيد اطلاقاً من الدرس .. ما تعلمته من أبي تردده الآن ولكن كلمات جوفاء .. غاب عـــن عينيك الحب الصافي الحنان الكلمة الطيبة .. أصبحت مجـــرد شخص يعانق الظلمة.. والحزن والسيجارة حاول أن تخرج من هذه القوقعه .. أن تعلمني كلمات قالها أبي في لحظة عشق ..

- نورا يا ابنتي لا تطلبي مني الكثير جرح اللحظة مازال ينزف داخلي .. وتلك الصرخة مازالت ترن في أذني كان يوماً ممطراً شتيئاً حزين .. قال أبوك .. (لنخرج بالسيارة في نزهة قصيرة) كان الضيق يرتسم على وجهه لم أحـــاول أن أعانـــده ركبنا سوياً أصر أن يقود السيارة بنفسه .. رغم إلحاحي عليـــه وانطلق خارج المدينة كان المطر يتساقط خفيفاً ومتواصـــلاً .. والطرقات مبتله .. والشمس غابت خلـــف الـــسحب الـــسوداء الكئيبة.. والبحر يمتد في خط موازٍ لنا .. قد ارتفع موجه إلـــى مسافات عالية كنت أحس أنه يريد أن يقول شيئاً .. أن يفرغ ما في صدره .. كان الغضب يتطاير من عينيه وسر في صـــدره يختلج .. قلت في نفسي.. سيتكلم فأنا أعرفه جيداً سيفرغ ما في قلبه بعد لحظات .. أشعل سيجارة ثم داس بقوة علـــى الـــسيارة فانطلقت بسرعة جنونية .. نظرت إليه باستغراب لكنه لم يأبـــه

بي .. وكانت السيارة تنهب الأرض نهباً .. فاختلطت أمام عيني صورة البحر والأشجار وفي لحظة رهيبة وعند منعطف خطير لم أع شيئاً.. كانت الأرض تدور بي أحسست بأني معلق بين السماء والارض .. وصوت ارتطام يشق رأسي وصرخة رهيبة ترن في أذني ..

نظرت من حولي .. وجدت أننا استقرينا في قعر وادٍ رهيب وأبوك ممدد إلى جانبي والدماء تنزف منه .. ليس هناك أصعب من أن ترى من تحب يرحل بعيداً عنك .. كما ينساب الماء بين الأصابع.. لم يقل أبوك شيئاً .. كان صامداً كما في حياته احتضنته بقوة .. تغطي جسدي بدمه امتزجنا سوياً مع الأرض التى أحبها ولكن لا بكائي ولا حرارة يدي ولا صراخي المنطلق مع جنبات الوادي .. استطاعت أن ترجع اليه الحياة هل تريديني بعد ذاك أن ابقى .. أن اقاوم .. أن أمارس حياتي من جديد .. " نورا يا حبيبتي كل الأشياء الجميلة بعد أبيك ذبلت والعمر ماعاد سوى لحظة من ماضٍ رهيب.

– ولكن ألم يحن بعد موعد خروجك من قوقعة الحزن والموت وضباب السيجارة والفرحة الضائعة .. ؟

– اقتربي مني .. هاتي رأسك بين يدي ضعيه على

صدري.. رغم الحزن والضباب ستبقون في القلب وستبقون ابتسامة الغد وأمل الحياة عودي إلى أمك لا تهتمي بي .. قولي لها سأظل لكم رغم الحزن لحظة الأمل .. فرحة القلب .. روعة الطريق..

- إلى اللقاء وأرجو أن تزورنا في أقرب وقت ..

اقفل الباب خلفها واستند عليه بظهره .. فيما كانت دمعه تستقر على خده وتتلألأ على ضوء المصباح.

مايو/1984

المعـــلـــم

خطأ بخطواته في الممر الطويل الضيق فاختلطت صدى أقدامه بأصوات التلاميذ وبرنين الجرس معلنا بدء الحصة أحس بالدوار يضرب رأسه وبالممر طويلاً لاينتهى والعرق يتـصبب من جبينه رغم برودة الجو في الخارج ، اقتــرب أكثــر مـــن الفصل تناهى إلى سمعه تلك الجلبة التى يحدثها التلاميذ عنــدما يحسون بتأخر المدرس في الدخول إلى حصته تمنى لو يرجــع من حيث أتى ولكن هاتفاً في نفسه قال له : ما ذنب التلاميذ .

أحس بالبطء يزحف في خطواته توقف قلــيلاً .. اســترد بعض أنفاسه المتلاحقة .. حاول أن يشد قامته ليبدو قوياً لكنه لم يستطع .. تهالك إلى الحائط وأسند ظهره إليه كان لابد أن يفعل ذلك لكي يظل واقفاً .. قال في نفسه : (لعلها آثار الــشيخوخة التى بدأت تدب فيه أو أنها تلك الكوابيس المزعجة التى تلاحقة وتمنع عنه حتى النوم) لقد عــاش حياتــه بالكامــل منفــرداً ومنزوياً.. لم يقم أي علاقة ولم يستفد مـــن علمـــه أو دراســته أحد.. حتى التلاميذ ظل ارتباطهم به ارتباطاً بمــنهج مدرســي جامد .. لا حركة فيه .. ولم يحاول يوماً أن يناقش معهم شيئاً.. أن يحدثهم عن شيء عن كتاب قرأه أو رحلة قام بهــا.. ولــم

يحدثوه عن أحلام تراودهم لذلك فقد كان يشعر بأن صورته في ذاكرتهم .. تظل دائماً باهته فالذاكرة لا تحتفظ إلا بالأشياء المضيئة فقط .. وها هو العمر يمضي ولم يحس يوماً أنه حقق ذاته فقد ظل العمر كله مجرد آلة يحركها شيء غامض ترحل في هذا العالم .. تبحث عن لقمة عيش وعن مرتب يقبضه آخر الشهر نظير بعض الكلمات التى يقولها للتلاميذ .

أحس بأن الجمود يسيطر عليه بالكامل وأن حياته تفقد الطعم اللذيذ .. وأن في حلقه مرارة لم تزلها السنون التى مرت.

أصلح من وقفته .. فك رباط النعق .. أخذ يسير رويداً رويداً.. وصل إلى الفصل .. قفل الباب خلفه وقف التلاميذ أشار إليهم بالجلوس .. استمع إلى الحركة العادية في إخراج .. الكراريس والكتب .. اتجه ببطء نحو اللوحة .. كتب التاريخ ثم تراجعت يده عن الكتابة .. جذب كرسياً وجلس قبالتهم فيما كان التلاميذ صامتين وأنظارهم تتجه نحوه.

كان في قرارة نفسه يبحث عن قرار .. هل يستطيع أن يغير من عادته .. وأن يبتسم في وجوههم مرة ؟ نظر إليهم رأى لحظات الشباب المتدفقه .. تعانقهم وتدعوهم للانطلاق .. للحب تمنى لو يعود صغيراً سيرفض شكل حياته السابقة ..

التى عاشها من قبل .. وسيقفز من فوق أسوار المدرسة سيغازل الفتيات ويغرق في بحور من الأحلام الجميلة .. سيقرأ لكل الشعراء .. وسيذهب لمشاهدة كل الأفلام وسيغني للحب وللحياة وللحرية .. وسيغني للوطن .. ارتسمت في ذهنه تلك اللحظة فكرة قرر أن ينفذها فوراً .. فلأول مرة يتخذ قراراً دون تفكير أو مراجعه .. اتجه نحو اللوحة وكتب كلمة .. التفت إلى التلاميذ سألهم بصوت عالٍ .. من فيكم يستطيع أن يقرأها رد جميعهم بصوت واحد (وطني).

أحس في تلك اللحظة بأن الزمن يتراجع وأن عينيه يغطيهما ضباب كثيف .. وروحه ترحل إلى البعيد .. تذكر أصدقاءه اللذين قتلوا من أجل هذه الكلمة .. تذكر كيف بكاهم يومها في سره عندما رفض أن يخرج معهم في مظاهرة وفضل الذهاب إلى البيت وعندما سمع نبأ موتهم بكاهم وحيداً ولم يستطع أن يعلن مراسم حزنه كان الخوف أقوى منه.

أحس بدوار غريب يهجم عليه .. حاول أن يظل واقفاً ولكن الدنيا كانت تدور .. تشابكت أمام وجوه التلاميذ والأدراج.. وأصدقائه الراحلين .. تهاوى على الكرسي الذي بجواره .. سقط على الأرض فيما كان ضباب كثيف يغطي عينيه فلم يعد يرى شيئاً سوى أشباح تجري امامه.

التف حوله التلاميذ حاولوا أن يرفعوه و وضعوه على الكرسي من جديد بدأ يستعيد وعيه أعطوه بعض الماء رأى نظرات القلق المرتسمة على الوجوه الصغيرة وتلك الابتسامة التى تعيد الثقة في النفس أحس بعمق الحب في نظراتهم وفي قلوبهم التى أفزعها سقوطه المفاجئ.

تمنى في تلك اللحظة أن يعانق هذه الوجوه الجميلة .. أن يسافر في صفاء تلك العيون .. فتح ذراعيه .. تسابق نحوه التلاميذ معانقين.. فيما انحدرت دمعه على خده وغاصت في حلقة الكلمات...

6 – 1 – 1989 ف

الحصان

الإهداء : إلى أبي

نطفة في بطن أمك .. جنـين فـي رحمهـا تتكـون .. راقبتك.. أحسست بك .. تعلقت بلحظات ظهـروك .. منـذ أن أشار أبي إليها وقال (مافي بطنها لك) وأنا أعـيش لحظـات نموك .. أعانق في شوق جارف أمك .. امسد شـعرها.ارتـب مكان نومها .. انتقي أكلها أصبحت شغلي الشاغل .. لحظـات فرحي .. ولعبي .. وانتمائي .. وقد أنسى كل شيء إلا لحظات قدومك إلى هذا العالم .. في تلك الليلة التى سهرت فيها مع أبي ننتظر خروجك .. أراقب على ضوء المصباح القديم وجه أبـي وهو يتألم مع تنهدات أمك وصراخها كانت لحظة مواجة صعبة مع القدر .. مع الليل .. مع الريح والخوف.

حين خرجت أبيض في روعة الجليد .. جمـيلاً كنهـار ربيعي مشمس .. أحسست بالفرحة تغمرني .. تهزّ روحـي .. تسافر بها نحو عوالم الفرح القادم .. نظر أبي إلى بفرح وابتسم " ربماالأول مرة أراه يبتسم " ربت على كتفي وقـال هولـك .. أحسست ساعتها بالدنيا تعانقني ولحظات الفرح المتدفق تـسري في عروقي رائعة وجميلة واصوات الفجـر النديـة تحتـضن

قطرات دموعي المتساقطة وامتدت الأعوام وأنت شريك العمر الراحل والأيام القادمة والفرح الغائب والحزن الذاهب .. وامتدت الأيام وأنت فرح يسابق الريح مع اختلاجات النفس وسكون الوجد وأماني العشق.

وامتدت الأيام .. بك أصبحت معشوق كل صبايا وعذارى الفجر في حينا .. بك أصبحت مضرب المثل في معنى التوحد والانصهار .. بك أصبحت لحظات النصر وزهو البطولة وأمل الشيوخ.

قال أبي: (كي تكون شجاعاً عليك ألا تخاف الدروب وكي تكون فارساً عليك أن تعشق المركوب) .. ولأنني أحببتك صرت محط كل الانظار وقبلة كل المتنافسين بك أحقق نصري.. ابني ذاتي.. أمزق رايات رفعت تتحداني .

قال أبي : (غداً موعدنا مثل كل عام .. غداً المزار.فلا تتعبني معك) فهمت ماقصد أبي .. وحينما جئت كان المكان يزدحم بخلق كثير جاءوا من كل الانحاء رمت بهم الوديان والتلال والاحياء تلافي الأحبة .. والتأم شمل الاهل .. تعانق الغرباء وكانت القبة البيضاء تلوح وسط أمواج البشر .. انطلقت الزغاريد ونصبت الخيام وهامت النفوس تترنم بمواويل

العشاق.. وانطلقت الخيل في أروع سباقاتها.. وجئت أنت بي .. كالسهم انطلقت تمزق ستار الريح .. سكون الكون تهدر كسيل جارف .. لوح أبي بيده التى أكلها التــراب فــصارت أخــشن الأشياء التى عرفتها وابتسم .. غاب العالم عن ناظري .. ولــم أعد اشاهد سوى تراجع الأشجار والناس والخيام .. وحيداً كنتُ في الميدان .. وحيداً كنتُ أعانق لحظات انتصاري .. وجاءت عجوز من حينا .. ودارت بموقد الفحم المملوء بالبخور حــولي وحولك سبع دورات .. ووضع فقيه الحي يــده علــى راســي وقرأ.. المعوذتين وآيات أخرى من القرآن اتقاء العين والحــسد واحتضنني أبي بقوة وشعرت في تلك اللحظة بروعــة الحــب ولمسة الحنان من تلك الأيدي التي لم تعرف يوماً سوى الفــأس والتراب والصفع .. وزغردت أمي .. وابتسم أبي ولم يغضب.. ربما كانت هذه أول مرة يسمع فيها صوت أمي عالياً .

عفواً ياصديقي فقد غبت عنك أخذني بحر الذكريات بعيداً عنك ونسيت أننا أصبحنا غريبين .. أصبحنا بقايا أشياء مكدسة ومهملة. وأصبحنا لا نملك سوى أن نجتر ذكرياتنــا ونحكــى بطولا تنا ولكن .. من يــسمعنا .. لا أحــد .. ســوى الــريح والجدارن والفراغ.

عفواً يا صديقي .. أعرف أنك تتألم تتهار وتذبل وأعرف أنها اللحظات الأخيرة ولكن .. ماذا أستطيع أن أفعــل ... أنــا الوحيد و كل ما حولي فراغ رهيب كل الوجوه التــي أحببتهــا رحلت .. زهورهم ذبلت .. أحلامهم انطفأت .. لم يبق ســوى أنت والماضي وهذه الجدران التي تحاصرني من كل اتجــاه .. تقيد كاهلي تحطم روحي تأسر هذا القلب الذي ما عرف يومــاً سوى الانطلاق .. تكبلني هذه الكراسي وأنا الذي لم يرتح يوماً إلا على صهوة جواد.تحاصرني الشمس وأنا الــذي تعــود أن يعانق لحظة بزوغها مع قطرات الندى الجميلة.

عفواً يا صديقي .. أعرف أنــك تتــألم ولكنــي وحيــداً تحاصرني هذه السنون العجــاف وهــذه الكتــل الاســمنتيه .. ونظرات أبنائي الذين استهوتهم هــذه الدوامــة التــي اســمها المدينة.. فتركوا كل شيء وجاءوا بي إليها وعندما أخذتك معي صرخوا .. ورفضوا .. وناقشوا .. ولم أجــد ســوى الرحيــل بدونك .. لكنني عدت .. وحيداً عــدت .. محطمــاً ومنهــاراً وضائعاً .. فلقد أحسست حين غبت عني بأن أشياء كثيرة قــد نزعت من روحي وإنني أصبحت بلا ماضٍ .. بلا أرض .. بلا تاريخ .. ولكنك حتى أنت قررت الرحيل .. قررت السفر مثل باقي الاحبة ولم يبق سواي .. انتظر لحظة الرحيل .. أعــيش

بقية لحظات العمر شمعة فقدت نورها .. عين فقدت ابصارها.. قلب فقد أحبته فعفواً يا صديقي لعل الموت راحة لـك .. لعـل الموت راحة لي .

تقول الحكاية .. بعد أيام معدودة مـن مـوت الحـصان وجدوه وحيداً وقد لفظ أنفاسه في خيمة وسط الصحراء تعـانق الريح والشمس والفجر وتغنيٍّ مواويل العشاق ، وتلغـي كـل الحواجز بين الأرض والإنسان.

1986 / 1 / 18

تجليات لحظة صحو

الإهداء : إلى الشاعر على الخرم

الحزن يدهم روحي ينزفها .. يسافر بها نحو آفاق مملوءة بالوحشة ... والكلمات تتبعثر تتقطع تسقط قطعاً صغيرة مبعثرة.. وأنا أرنو إلى مصباح الغرفة حيث فراشة تمارس عشقها في لحظات توحد وانصهار كامل رغم احتراقها بوهج المصباح لكنها لا تتراجع وتعاود التحليق والانصهار والتوحد .. تمنيت في تلك اللحظة أن نكون الفراشة نعشق الوهج المتألق فينا بكل التوحد ولا نخاف لسعات النار المحرقة ونظل نمارس لغة العشق رغم النار ورغم اللهب ورغم وعورة الطريق ...

يأخذني وهج المصباح تتعب عيناي الذابلتان تتراقص أمامي الأشياء تتلاشي جدران الغرفة الضيقة أسافر في غيبوبة.. مفاجئة .. تنسيني تعب الأيام وتطفئ في القلب هذه الحرقة وتدفن برمادها جذوة الجمر المشتعلة فيه .. يعمُّ الظلام تنهار بين الغيبوبة والصحو جدران الغرفة .. تبرز من سقف الحجرة هوة مثل وادٍ مخيف في الهوة نقطة في النقطة نور في النور شيخ في الشيخ مهابة .. يهزني بعنف ويقول : اكتب قلت: ما أنا بكاتب

قال : اكتب

قلت : ما أنا بكاتب ..

هزّني الشيخ بعنف وضرب على وجهي بالمسبحة ورحل.

استيقظت فجأة كان النور يغمر الحجرة والفراشة تمارس لغة العشق والتوحد .

هدَّني التعب ارتميت على سريري تساءلت في حيـــرة ألا تتعب الفراشات من التحليق حول الضوء ؟ .. أطفأت المصباح غاب صوت الفراشات و استكان العالم من حولي نظرت إلـــى سقف الغرفة كان الظلام يسيطر على عـــالمي داهمنـــي النـــوم سافرت بعيداً ..

هزني الشيخ من جديد فتحت عيني كـــان النـــور يغمـــر الغرفة وكانت الهوة السحيقة تفتح فمها تدعوني للإبحار وصوت الشيخ يقول بعنف : اكتب : قلت : ما أنا بكاتب .

قال : اكتب

قلت : ما أنا بكاتب

هزني بقوة وقال : اكتب .. اكتب كلمات بعمـــق الوجـــد وروعة الحب وأحلام الآتي .. اكتـــب أحرفـــاً تتـــوهج مثـــل

السنابل.. مثل النور.. مثل الشمس .

نهضت من فراشي وامتدت يدي نحو القلم ورسمت على البياض الممتد أمامي بعمق لا منتاهي

و طــــــن ي

وطني .. علت الشيخ ابتسامة جميلة ومسحة من الرضـــا ووضع يده على كتفي وقال :

قد عملت فالزم .. قد علمت فالزم .. قد علمت فالزم .

وتلاشى في موجة من النور ... فيما امتد أمـــام عينـــي وطني بحار مملوءة باللؤلؤ والمرجان وأنهار محبـــة وفراشـــات عشق وربيع يعمر الدنيا بلون سعف النخل.

1987/3/28

ثلاثة وجوه للحزن

الإهداء إلى الراحل مبكراً الصديق

الشاعر عبدالعظيم شلوف

الوجه الأول :

حين ارتميت على سريري الحديدي الصغير داخل غرفتي الضيقة المشبعه برائحة التبغ الرخيص وحذائي وأحلام اليقظــه والشهوة وصور الخيل التى كبلتها الحــضائر والــورود التــى تغتالها المباني .. كان الليل ينسدل بوحشية قاتله تقتل كل أماني الضوء في قلبي وتمنع العين أن تسافر في رحلة رائعة تجتــاز مسافات التباعد وتخترق حد الأفق الفاصل بين الماء والــسماء وتلغي ذلك التوحد الغريب بيني وبين الشمس ..

أحسست بعمق اتساع الغرفة رغم ضــيقها وبتلــك البــرودة القاتلة التى تنخر عظامي وتنخر أرجل السرير المعدني وكل ما في الغرفة من أشياء .. تذكرت في تلك اللحظة وجهك الطفولي الغائــب وعينيك التى تحلم بالمواني وأمــاني العــشق ولحظــة الوصــال وأحسست ساعتها بعمق الوحده حين تحتويك برودة هذا الليل وحيداً دون صدر يبعث فيك الدفء وعيون تمنحك الأمان وشعرت بــأن أعظم لحظات الفقدان أن تفقد وجهاً أحببته تعرف أبداً أنه لن يعود.

الوجه الثاني :

حين لاح وجهك عبر ضربات الموج المتلاحقـة علـى الشاطئ وامتزج مع الزبد المتناثر فشكل علـى سـطح البحـر خطوطاً صغيرة أخذت تكبر مع روعـة ابتـسامتك وحركـات الشفاه حتى التحمت مع قرص الشمس البرتقالي فـشكلت مـع الموج والشمس والبحر خارطة لوطن أعرفه .. أيقنت سـاعتها بأنك في لحظة الوجد تكونين وطناً ويكون الوطن أنت.

قبضت على حفنةٍ من رمل بجواري فامتزج الرمل والماء بأصابعي الممدودة نحو وجهك فتشكلت في الأفق البعيد كثبـان رائعة لرمل أحببته .. أحسست ساعتها بأنكِ الرمل والـصحراء والبحر .. وبانكِ لحظة الوجد والشوق والأمان.

الوجه الثالث :

حين لاح وجهها خلف سحب قاتمة من الضباب الكثيـف مددت يدي نحوها لكنها ابتعدت .. طـارت نحـو عـالم مـن المجهول مسكون بالوحشة والخوف والظلام وحـين اخترقـت طريقي نحوها اصطدمت بسد عالٍ ورهيب كانت تقف خلفه .. وعندما حاولت أن أحفر فيه حتى ينهار قالت :

ستكمل العمر تحفر ولن ينهار السد .

قلت : ساعتها سيقولون عني أنني متُ في الحب

قالت : وما ينفعك ذلك .

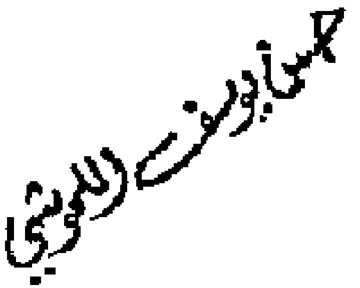
قلت : قد يجد بعدي من يكمل طريق الحفر فينهار السد.

قالت : ساعتها سأكون من نصيب غيرك.

قلت : المهم أن ينهار السد ولتكوني من نصيب أي كـان فقط يكون هذا القادم قد دمر السد وحطم هذا الوحش الرابض.

قالت : ما كنت أعرف أنك تحبني لهذه الدرجة

قلت : ما كنت أعرف أنكِ قريبة إلى هذه الدرجة ابتسمت على البعد وأمسكت بأصابعها شعرها المتطاير مع الريح فيمـا انكفأت أنا من جديد أمارس عملية الهدم.



صور من وهج الليل

إلى سناء محيدلي الشهيدة الرائعة

راقصتني الشمس على ضفة النهر السليب قالــت : ســلاماً أيها القلب الممزق .. سلاماً أيتها الشمس الرائعة .. هتــف قلبـي حين احتضن بين يديه دفء الربيع المسافر عبر أغصان الشجر..

سلاماً أيها القلب التائه في ظلمة الليل هتفت الشمس هــذا وجهك عبر أشعة الحب مطروحاً فأكتب قائمة الممنوعات فــي وطنك وعلى رأسها هذاالنهر .. قلت سلاماً أمنا الكبيرة يكفــي القلب جروح الموت الساكن فيه يكفي القلــب أغــاني الفــرح المخنوقة فيه قالت الشمس دونك الليل يرسم في صدر الــسماء صور العشق .. اقترب أيها الليل ، وارسم في قلب هذا التائــه أغانٍ للوجد ...

اقترب الليل مني عانقني فتح بيديه الكبيرتين صــدري .. استل في عتمة حبة القلب ورسم :

الصورة الأولي ..

رسم الليل في حبة القلب صورة لأمير خليجـــي عـــشق امرأة شقراء من أقصى الشمال ، فرسمت على جسدها خارطة لكل فنون قحبها وشذوذها ثم تركته وحيداً مع الـــريح .. ولـــم يحزن فقد خسر في الصفقة بضع ملايين من الدولارات .

وقف

قلت سلاماً أيها الليل أما يكفي القلب كل مافيه من جروح الحزن حتى تزيده ابتسم الليل ومحا بكم قميصه تلك الـــصورة ورسم

الصورة الثانية

استل الليل حبة القلب من جديد ورسم كوخاً من بقايـــا صـــدأ الزنك ومخلفات حرب بيروت وأكياس الرمل .. في الكوخ تقبع امرأة في حضنها يرقد صبي مزقه البكاء وقد تشوه الوجه مـــن الجـــوع وقنابل الاشقاء والموت الكامن في الطرقات وليل بيروت الرهيب .

وقف

قلت سلاماً أيها الليل أما يكفي القلب كل هذا النزيـــف .. ابتسم ومسح بكم قميصه على حبة القلب ورسم ..

الصورة الثالثة

رسم الليل في عمق القلب صورة للمرأة يسكن وجه الإله ابتسامتها ويعانق الفجر صفاء عينيها .. قال الليل أتعرفها ؟

قلت : مرحى أيها الليل إنها سناء .. عشق الموت وفرحة اللقاء.. إنها أغنية الحب التى لا تنتهي وابتسامة الشوق الـذي ذوبه بعد اللقاء .. سلاماً أيها الليل هذه صورة لمـرأة أعـشقها فزدني أيها الليل من أماني العشق وزدني فرحاً وتوهجاً ودعني أعلن للعالم .. أنني من عمق القلب أعشق سناء والنهر السليب وأطفال يافا وبيروت والجنوب والدرب الرهيب.

أشرقت الشمس تغازل وجه سناء المرسوم علـى قلبـي وامتدت لتحضني بدفئها المتوهج مع الإبعاد وغازلت روحـي الهائمة في العشق وانطلقنا سوياً أنا والعشق وسناء نركض فوق ضفة النهر نتراشق بالورد نسبح في الماء ..

فيما امتدت أجنحة الشمس تحتضن الكون وتعلن بالحـب وحده يبتدأ البناء.

1987 / 5 / 13

حين تغتالك الوردة

حين احتواه فراغ الغرفة الباردة .... أغراه مد العشق المتدفق في تلك المساحات البيضاء التي لاحت أمامه عالماً من العشق يدعوه للإبحار ناحية الضفة الأخرى ...

عانق في شوق جارف فرشاته ... وبفرح طفولي رسم على بياض وردة ... تراجع إلى الخلف قليلاً ... بهره جمال الوردة أخذ الفرشاة رسم فراشة تعانق الوردة ... ثم احتضن اللوحة بشغف حميمي ... لكنه في تلك اللحظة أحس بحركة غريبة تسري في أعماق اللوحة أبعدها عنه قليلاً ... شاهد الوردة تطبق ببطء على جسد الفراشة ... كوحش يهم بالتهام فريسته ... داهمته حالة من الذهول ... و دون أن يدري حاول تخليص الفراشة من براثن الوردة... أطبق بيده المرتعشة .... على تاج الوردة ... انغرست أصابعه ... في أشواك برزت فجأة والتفت على الأصابع ... حينها طارت الفراشة بعيداً حاول أن ينتزع يديه النازفة .... .ازداد توحش الوردة ... فزادت مقاومته لها ... برزت أغصان خرافية ... أمسكت بيديه ... وعصرت بقوة عظام الرسغ .... انهار على الأرض ... حرك رجليه ... ليضرب بقوة جذور الوردة التي خرجت لتوها من

أعماق الأرض ... أوشك أن يغرق في لجّة من الخــوف .... وشمعة العمر تطفئها ريح الهجوم المباغت استند على مرفقيه... حاول النهوض لكن الجذور الخرافية ظلت تقيــد هــذا الجــسد المنهك ... أيقن ساعة النهاية ... غير أن حبه للبقاء أشعل في قلبه فتيل المقاومة فاحت في أرجاء الغرفة رائحة عشق قديم ... أحس بطعم الرائحة يسرى عبر شفتيه ... يتغلغل في جسده ... أشرقت عيناه بابتسامة تحدٍ ... اتسعت ... حاول النهــوض ... فيما الجذور الخرافية تشده نحو الأرض ارتمي بجــسمه علــى الوردة المتوحشة.... لكنه انتفض فزعا حينما ارتطــم جــسمه ببلاط الغرفة ... فتح عينيه.... .شعر بدوار يلفه تلفــت فــي أرجاء الغرفة .. بحث عن الوردة الخرافية التي حاولت اغتياله لكن وردة جميلة كانت هناك تتألق فوق المساحة البيضاء.

الطفل وظل الشجرة

رميت القلم من يدى وضعت مرفقى على الطاولة أدخلت راسي بين راحتي ... أحسست بأن الدنيا قاتلة وبـــأن الـــسننين تقبل على بوحشية رهيبة لم أعرفها من قبل ... وأن المـــرارة تسكن حلقى... نظرت حولى أيقنت بأن الغرفة لا تـــستطيع أن تحتوى أجزانى ولاالقلم قادر أن يزيح هذا الهم .

شعرت برغبة في القـــئ ... اتجهـــت نحـــو الحمـــام .. أخرجت كل ما فى جوفى من قبح ومرارة ... غسلت وجهى .. نظرت فى المرآة الصغيرة .. كـــان الإرهـــاق قـــد داهمنـــى والاصفرار يغلب على لوني وحزن قاتل يسكن هذه العينـــين .. وطعم المرارة مازال يسكن هذا الحلق.

رجعت إلى غرفتي أمسكت بالقلم حاولت أن أكتب بعض الكلمات لعلها تزيح قليلا من وهن الجسم وخوف العقل .. لكـــن الحزن كان أقوى من كلماتى ... أقوى من كـــل الميـــاه التـــى غمرت بها وجهى وأقوى من الابتسامة التى حاولت أن أرسمها وكل الصور التى استدعيتها لاحبة عرفتهم واشتاق إلى لقائهم.

ضاقت جدران الغرفة الواسعة بى ... أحسست بأنى أختنق .. خرجت إلى الشارع مهرولا .. رحت أعدو فى شوارع المدينة .. أصطدم بالناس .. أقدّم اعتذاراً تلو اعتذارا... أحسست بالعرق يتصبّب منى وبقلبى يزدد خفقانه وبلهاثى يغمر العالم الذي حولي ... توقفت كانت الشمس تعانق الأرض فى أشد لحظات العناق مرارة .. نظرت حولي وإلى جذع شجرة كبيرة جلست ... أحسست بروعة الظل فى يوم قائظ ... وأيقنت أنني أحتاج إلى صدر يحتويني فى لحظات الحزن كما احتواني هذا الظل.

مسحت العرق المتصبب ... أحسست بخفقات القلب تبطئ قليلا .. وصوت لهاثي يغيب .. ونسمات رطبة تهب تسكن جرح القلب النازف ... نظرت إلى أغصان الشجرة العالية وتذكرت طفولتي وتسلقي لأشجارالتين والمشمش وضحكات الأطفال وشجارنا المستمر تمنيت لو أعود طفلاً يعدو فى شوارع المدينة يعانق المطر وأزهار الليمون ويغوص فى المستنقعات ويلعب الكرة وينصب فخاخا للعصافير ويكتب أجمل الكلمات التى سمعها على لوح الفصل

أحسست بحركة قريبة وظلّ شخص يقف على رأسى فتحت عيني كان طفلا جميلا قد وقف يتأمل جلستى الغريبة

تحت الشجرة.. نظرت إليه كانت الابتسامة تغمر وجهه وعيناه صفاء لاحدود له ... ابتسمت له ومددت يدى نحوه ... تـــردد قليلا ثم اقترب مني .. علت الابتسامة شفتاى .. استغربت كثيرا فمنذ مدة لم أبتسم.. مد يده مقبوضة نحوى ثم فتحها كانت قطعا من الحلوى فيها .. أشـــار أن آخـــذ منهـــا .. أخـــذت واحـــدة ووضعتها فى فمي أحسست بالمرارة تغيـــب عـــن حلقـــي .. احتضنت الطفل الواقف بقربى .. غمرت وجهه بقبلاتي فيمـــا كانت دموعي تهرب من أحداقي .. نظر إليّ بتعجب .. مدّ يده نحو وجهى .. مسح دموعى .. احتضنته من جديد .. فتّشت فى جيوبى فلم أجد شيئاً أمنحه له.

نهضت واقفا وحملته بين يدى .. إعترضني جسد امـــرأة مدت يدها نحو الطفل .. علت وجه المـــرأة ابتـــسامة هادئـــة ونظرت نحوى فى هدوء .. هاجمتنى تلك الـــصور الرئعـــة .. شعرت أنى أعرفها من زمن وبأنى عانقت هذا الوجه طويلا فى لحظات حلمى وصحوى .. استدارت نحـــو الجهـــة الأخـــرى استدرت معها التقت عينانا مـــن جديـــد... هـــاجمنى العطـــش والخوف .. كانت هى .. تلك التى عانقت عينيها سنين طويلـــة ورسمت لها أجمل سطور الحب وأروع قلائد الفرح ... لكنهـــا فى لحظة مواجهة مع الزمن تركتني وحيدا ورحلت.

أدارت عينيها بعيدا وابتعدت دون تبادل كلمة ناديتها توقفت واستدارت نحوى .. ابتسم الطفل .. تقدمت نحوها بخطوات مترددة وقلت لها :

(لا أملك ما أعطيه لطفلك فى هذه اللحظة سوى قلمي وأنت تعرفين أنه أعز ما أملك .. لعله إن احتفظي به له أن يكتب به كلمات تتوهج مثل نور الشمس وسنابل القمح وتغزو القلوب التى دمرها الحزن فتحمل لها نسمات فرح رائعة.

أخذ الطفل القلم من يدى وابتسم ، ثم استدارت وتركتنى خلفها واحتواها الطريق الطويل ، ورجعت أنا إلى ظل الشجرة أحلم بالطفولة والأشجار والعصافير.

1987/9/18

وقائع غير معلنة لموت فارس

الإهداء إلى/ خليفة بن زابيه

(مبدع مسرحية حتى يعود القمر)

الواقعة الأولى

الشمس وحش مخيف .... الأشواك النابتة

في أرض البور تغتال الاقدام الحافيه فيتشكل الدم المراق على الأرض خرائط لمدن يعشعش فيها الموت و البوم والخراب...

الدرب طويل ... أطول من كل الدروب .... و الشمس تغتال في القلب أولى لحظات التحدي .. و الغبار المثار يلتصق بالجسد الذابل فيشكل مع العرق المتساقط خطوطاً مخيفه على صفحة الوجه و يغزوالعين يمنعها من الإبصار ... و الخوذ الفولاذية تشكل مع الحراب سداً منيعاً ... بين لحظة الموت والحياة... وتمنع هذا النهر الدافق من البشر أن يسبح نحو لحظة الحب.

الواقعة الثانية :

لا تفتني بعدك .... إنني أدَّخرك ليوم أعظم من هــذا لا تفتني بعدك ... لا تجعليني أعانق مرارة الحرمان و اليتم .... قالت أمي...

الواقعة الثالثة :

قالت حبيبتي ... حين تشابكت أيدينا في غمرة هذا الزحام وهذا التيار الجارف من البشر ... معك أحسّ بروعــة العــالم معك أحسّ بأن كل الدروب مهما كانت طويلة لابد من نهاية لها وأن العالم مهما كان موحشاً لابد أن يزهر وأن تتحــول هــذه الأشواك القاتله إلى أزهار جميلة وهذه الأرض الجــدباء إلــى ربيع يغمر الدنيا.

الواقعة الرابعة :

الحراب المشرعة في وجه الشمس ... السياط الممــدودة كثعابين سامه ... الأقــدام الثقيلــه ... الخــوذ الفولاذيــه ... الصرخات التائهة ... الأرواح العطشى للحظة الأمان تــدفعني نحو الموت ... ما عدت أطيق ... ما عدت أتحمّل هذا الثقل... و الليل طويل ... والدرب موحش .. وللــصبر الكــامن فــي الأعماق حدود ....

الواقعة الخامسة :

النهر الزاحف من البشر يتهاوى ... ينهار ... و الضجيج يملأ هذه الدروب .. و الغبار المتصاعد يغتال لحظات الصحو القليلة.... والعطش القاتل لقطرة الماء يقتل في النفوس كل لحظات الأمل ... والعروق التي جفت من جدب الزمان والمكان. تحلم بقطرة تعيد إليها أنتعاشها و الحراب القاتلة تسد كل الطرق والحيوانات مارست في لحظات اليأس انتحارها الجماعي ... وفي كل لحظة يسقط إنسان ... ترتفع صرخة تضيع في أعماق الوديان المخيفة و لا شئ سوى هذه الشمس المحرقة ... و سماء عالية وأشواك قاتلة. وهذه رمال البريقه تفتح فكيها كوحش خرافي جائع ينتظر أن ترمي له فريسته ... وهذه رمال البريقه دوامة قاتلة من الخوف والحزن و الموت .

الواقعة السادسة :

مابي مرض غير دار العقيله .... .و حبس القبيلة

وبعد الجبا من بلاد الوصيلة

مابي مرض غير ضرب الصبايا و جلودهن عرايا

ولا يختشوا من بنات السمايا بقول يا رزيله

الواقعة السابعة:

آن لهذا القلب المتعب أن يستريح .. وآن لهذه الجذوة أن تنطفئ .. وآن لهذا السراب أن يرحل .. وآن لهذا القرار أن يتخذ...

ولمن تتركني وحيدة وسط هذه الرمال .تحاصرني الحراب السياط .. وليل الشوق الطويل .قالت أمي.

قلت:

ماعدت أطيق .... لحظة الموت في قلبي تناديني ما عدت أطيق.

قالت حبيبتي معك سأرحل .... سنقاتل سوياً .... قلت صدري متراس يحميك ... قلبي مدفأة لك في ليالي الشتاء.

ويدي حاجز بينك وبين الحراب ... فقط لو نستطيع أن نجتازهذه الأسوار القاتلة التي تحاصرنا.

الواقعة الثامنة :

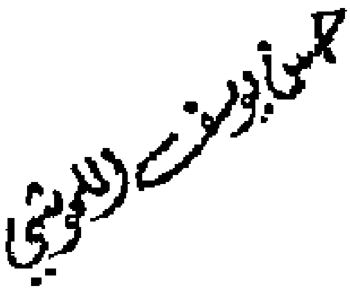
الليل صديقي ... فكثيراً ما عزفت له أجمل الألحان ، و الليل صديق لا يخذلني ، و لا يقتل في شوقي للحرية ، و سيجعل من نفسه ستارا كي أتواري فيه.

ولمن تركتني قالت أمي حين عانقتني ... أحسست بلحظة ضعف قاتلة لكن منظر الحراب ، وصوت الـــسياط ، و بكـــاء الأرامل يطرد من القلب كل أحاسيس الخوف.

الواقعة التاسعة :

جثة على أسلاك الموت .... صلبوه كانت عينـــاه رغـــم الموت تبتسمان وكانت يداه رغم الصلب قويتين ، وكان راســـه رغم القهر شامخا وكانت روحه رغم الموت تعانق حلما يتراءى لها من بعيدٍ ... ويحول الرمال القاحلـــة إلـــى أعـــراس مـــن الحب.... ويحول هذا الجدب إلى ربيع زاهٍ يفجّر هـــذا العـــالم بأجمل القصائد.

1990 - 3 - 30



زهرة .... .و عودة القمر

{1}

كان اسمها زهرة .... كانت تغني الأطفال والليل الجميل..... تجمعهم كلما حلَّ المساء تهدهد روحهم الغارقة في الفضاء .... .. تسمعهم حكايا الحب و الوجد وحنان الأمهات تحكي لهم عن الإحلام والشوق الجميل .... عن فتاة كان اسمها زهرة.... .تعشق السنابل والأقحوان و عناقيد العنب عن فتاة تعشق السواقي والنخيل وجداول النعناع وأماني الوجد وصهيل الخيل .... وتحلم بالفارس القادم من ضباب الحزن يمزق حواجز الموت و الخوف الرهيب.

كان اسمها زهرة ما أجملها عندما تهتف ... حين تبتسم حين تغني ... لكنها عندما تغرق وحدها في حجرتها الصغيرة تبكي بحزن ويحط عصفور الوجد على شباكها الصغير قرب جرة الماء ويغني لها حزيناً كان الغناء ، وحزينة كانت زهرة رغم ابتسامتها وحكايها وأمل انتظار القادمين.

{2}

كان اسمها زهرة .... .منذ أن عرفت للعشق طريقاً و أنا

أحب زهرة أعلن عينيها بحاري ... أمانيها سفني .... فلم تكن زهرة عشيقتي بل كانت بوحي وفرحي وأغنياتي وطريق الشوق والجسر الذي به عبرت ... وحين يحتضننا المساء ... تطل زهرة من شباكها الليلي الجميل وترسم في صفحة القمر أجمل لوحه تعانقها عيناي ... وأحكي لها عن فرس جموح تخترق ستار الليل بجناحين تعانق القمر وترصع عنقها بالنجوم ... احكي لها عن نخلة تطعمني رطبا وتمنحني في وعورة الطريق لحظة أمان ... فتغمض زهرة عينيها في انتظار الفرس الطائر فارسم على الجدار المقابل لشباكها الصغير خارطة لوجعي المدفون منذ سنوات في الشوق و الغربة التي اغتالتني، وحيدا وتركتني بقايا إنسان و حين أحس أن زهرة تبكي ودموع الوجد من عينيها تفيض .... .اكتب لها اغنية حب و ارسم لها وجه امرأة ضفائرها بطول النخلة ... عيناها بروعة القمر ... ابتسامتها بجمال الربيع .... تبتسم زهرة وتقفل شباكها حين تسمع صيحة تناديها من بعيد.

{3}

اجرُّ خطواتي في زقاقنا المظلم اختفي في عمق الظلام... ادفع بابنا المتهالك القديم تحتضني رائحة البيت العتيق وامي

والصبر الجميل .... أحس بالنخلة الوحيدة تبتسم لي تنظر إلــى بوجد احضنها بيدي أهتف لها أيتها النخلة الشامخة منــك مــن وحدتك من شموخك استمد قوتي أنا وأنت كلانا وحيدان يعرف طعم الوحدة وكلانا يحس عمق الوحشة و كلانا مازال صــامدا في وجه الريح والغربه ... أدخل غرفتنا الوحيده أجدها تــضع وجها بين كفيها وتنتظر... أحس برغبة في البكاء أرتمي فــي حضن أمي وأبكي وتبكي معي أمي والنخلة الشامخة ومزاريب بيتنا العتيق ... أحس بوحشة هذا الزمان وبأن الليل طويل ... تنهض تبتسم من خلف الدمع تفتح صــندوق عرســها الجميــل تخرج كل ما تملك تضعه بين يدي ... ابتسم بحزن قاتل وأهز راسي وأقول كنوز العالم كلها لن تأتي بزهرة.

{4}

وحين اندسست في فراشي البارد المبلل بدموعي ودموع أمي. والنخلة والليل الطويل ... جاءني القمر وحطَّ على شباكي الصغير كانت معه فراشات الليل ، وأزهار الأقحوان والياسمين وزهرة ... مد يده نحوي وانتشلني وانطلقنا سويا أنــا وزهــرة وفراشات الليل .... واغتسلنا بمياه الساقية وركضنا حول النخلة وتكونت أزهار الياسمين على جيدها عقدا. ومــد القمــر يــده

وأطعمنا رطبا و احتضنت زهرة خلف جذع النخلـــة الـــشامخة صرخ القمر ، كان شبحاً رهيباً يقبل نحونا فـــي يـــده الـــسيف هاجمته الفراشات والأزهار لكنه مّزقها ناداه القمر الجميل ، لأن يبتعد لكنه بسيفه القاطع مزقه ... صرخت زهـــرة و احتمـــت خلفي تراجعنا واحتمينا بجذع النخلة لكنه مد يده واختطف زهرة واختفيا في المجهول مثلما من المجهول جاء ... صرخت فتحت عيني وجدت أمي تجلس بجواري تقرأ ما تحفظه من القـــرآن ، وتتمتم بأدعية طويلة ، وتدعو كل الأولياء كنت محموما وخائفا كنت أحس بالبرد الشديد لكني اندفعت إلى الخارج ورأيت النخله واقفة في مكانها ، تبتسم لي غسلت وجهي ، في دلو البئر فيمـــا كان صوت المؤذن يأتي من بعيد يمزق سكون الليل بحثت عن القمر ، كان قد اختفى دعتني أمي إلى الدخول رفضت وظللـــت جالساً أنتظر عودة القمر.

ارتباكات

{1}

شرع فى ارتداء ملابسه أمـــام المـــرأة ... نظـــر إلـــى صورته... أشاح بوجهه عنها .. استرق النظر إلى ســـاعته ... لم يبق إلا القليل على موعدها ... رش قليلا من العطر .. التقط المشط ، شرع فى تمشيط شعره .. توقف فجأة ... حـــدق فـــى وجهه بعنف .. اقترب أكثر من المرآة حتى رسمت أنفاسه غيمة على سطحها ... أرعبته الشعيرات البيضاء التى بدأت تهـــاجم رأسه ... أحس بخوف غريب نظر إلى ساعته ... تحرك نحو الباب .. امتدت يده إلى مفتاح الضوء .. تراجـــع بـــسرعة .. توقف أمام المرآة .. شرع فى خلع ملابسه حتى أصبح عاريـــاً واندسّ فى فراشه.

❖ ❖ ❖

{2}

سحره امتداد الطريق والنسمات العليلـــة ، التـــي بـــدأت تداعب وجهه.. أغراه التبدل فى الطقس .. أخرج يده من نافذة السيارة وأخذ يداعب بها النسيم ... حين يتحداه وحين يستـــسلم له... استهوته اللعبة.. سرح فيها نسي أنه يقود سيارته .. لـــم

يوقظه إلا أبواق السيارات العابرة للطريق وصراخ سائقيها ... أحس بخوف شديد .. أوقف سيارته مذهولا ... كان العرق يتصبب منه وارتعاشة شديدة تسرى فى رجليه وصوتها يخترق مسامعه وهى تهبط من السيارة (لم أكن أحسبك مجنوناً إلى هذا الحد) وصفقت الباب وراءها.

❖ ❖ ❖

{3}

حين دخلت مكتبه وعمّ عطرها المكان ، ومدّت يدها مصافحة... شعر بارتباك شديد فليس من عادة النساء مصافحة الرجال وخصوصًا فى أماكن العمل .. مد يده نحوها ولكنه فى اللحظة الأخيرة رأى جمرة سيجارته تتجه للاحراق أصابعها .. نقل سيجارته إلى أصابع يده اليسرى .. مد يده من جديد للمصافحة أحس باحتراق أصابعه من بقايا السيجارة ... ألقاها من يده سقطت على الأوراق المبعثرة على مكتبه ... نظر إلى يدها الممدودة وإلى السيجارة المشتعلة ... لم يجد مفراً سوى ترك يدها تنتظر .. التقط السيجارة ورمى بها فى المنفضة .. ابتسم لها من جديد وحين احتضنت كفه كفها أحس بشعور غريب شعور لا يعرفه إلا من جربه فقط.

❖ ❖ ❖

{4}

حين هم الجميع بالانصراف أبقته بإشارة منها ... وحين أصبحا وحدين ... نهضت عن كرسيها ورتبت ارتباك ملابسها ثم التقطت حقيبتها .. ضغطت على أصابعه بقوة هامسة له "لقد كنت رائعا هذه الليلة " وغادرت المكان.

❖ ❖ ❖

{5}

نظر إلى ساعته .. أضاء مصباح الغرفة .. اقترب مــن النافذة سحب الستارة البلاستكية إلى أعلـــى ... غمـــر الغرفـــة ضوء النهار .. فتح النافذة الزجاجية .. رآها تقبل من بعيـــد .. راقبها وهى تقترب حتى وصلت قريبا منه .. ابتسمت وأشارت له خلسة .. ابتسم لها وتبعها بعينيه حتى اختفـــت فـــى زوايـــة الشارع .. أقفل النافذة الزجاجية.. أنزل الستلرة البلاســـتكية .. أطفأ المصباح .. عم الغرفة الظلام وغادرها مسرعا.

حكايات قصيرة جدا

الإهداء : إلى أخي سليمان المنفي

{1}

فى عشِّ الموز اختفيت .. وعلى بعد رحت أراقب القفص المصيدة والطائر الأسير الذى لا يهدأ عن الحركة داخل القفص.

اللعنة على هذا الطائر "لماذا لايغرد الآن لمـــاذا لايغــرد ويدعو إليه أصدقاءه ... غنى ايها الطائر .. أعرف أن الأسير لايستطيع الغناء ولكن غرد من أجلي ... من أجلى أنا المسكين الذى ينتظره الويل لو لم يعد بصيد وافر .

كم أحبّ طيور (الكوردلينة) هذه ومنظرها الجميل وريشها الملون وقفتها الرائعة على حوافى (الساقية) فى بساتين درنـــه .. أنا لاأوذيها ولا أحب أن أراها فى الأسر .. وأكـــره الأقفـــاص اللعينة التى يمتلئ بها بيتنا ... ولكن لو لم أعد بـــصيد فالعقـــاب الشديد سيكون نصيبى .. لن يقتنع والدي بأن العصفور لم يغردْ ، وأن أصدقاءه فطنوا للمصيدة فولوا الأدبار .. بل سيتهمني بأنني قضيت يومي في اللعب والسباحة فى (الساقية) والتقـــاط حبـــات التين .... يا إلهى كم يعشق هذا الشيخ عصافير (الكوردلينة) هو

لايبيعها ولايتاجر فيها قد يهديها أحيانا .. لكنه يجد متعة كبيـــرة فى سماع تغريدها .. ساعتها يصبح في أجمل لحظات تجليـــه .. ويصبح شخصا آخر غير الذى نعرفه ... غـــرِّد أيهـــا الطـــائر الجميل من أجلى فقط .. من أجل طفل جميل هو أيـــضا يحبـــك ولكن ليس فى القفص .. على حواف الساقية وفوق شجرة التين.

❖ ❖ ❖

{2}

حين كنت صغيراً أشترى لي أبي ذات مرة لعبة جميلة ... ولكن أمى ومراعاة لشعور أبناء الجيران سمحت لى أن العب بها مرة أو مرتين داخل المنزل ثم خبَّأتهـــا ... لـــم تبـــالِ ببكـــائى واحتجاجي.. ونسيت مع السنين أمر لعبتي الجميلة ... ومنذ أيام رأيت ابني يلعب بلعبة غريبة .. أخذتها منه ، تفحّصتها جيدا .. عادت بي ذاكرتي إلى الوراء .. نعم إنها لعبتـــى المختفيـــة ... ضحكت من أعماقي ضحكة طويلة .. وجلست ألعب بهـــا مـــع ابني.. فيما أمي تراقبنا وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة هادئة.

❖ ❖ ❖

{3}

حين كنت طفلا .. كنت مشاغباً جدا وكنت أقود غـــزوات شيطانية على سوق الخضروات المجاور لنا .. فأصبحت عرضة لمطادرة الحرس البلدى وأصحاب الدكاكين .. وكنت أهرب منهم بأعجوبة دائما مما رسب فى أعماقهم حقدا دفينا على.

وفى إحدى غزواتى الفاشلة وقعت فى أيـــديهم .. احتميـــت ببكائى وتوسلت بكل الأولياء ولكن دون جدوى فالشرر المتطـــاير من أعينهم أنبأني بهول العقاب ... وفجأة تدخل رجل كبيـــر فـــي السن وخلصنى منهم .... منذ أيام التقيته ... عانقتـــه وصـــافحته بحرارة .. الرجل لم يعرفنى لكنني قلت له أما أنا أعرفك جيـــدا.. فالإنسان لا يمكن أن ينسى يداً امتدت له فى لحظة ضعف لتنتشله.

❖ ❖ ❖

{4}

كان صديقاً لنا لكنه يختلف عنّا جميعا .. فى داخله تكمـــن عوالم غريبة .. كان يحلم بالسفر .. مفتون بالعالم الآخر ولايرى إلا ما تنشره الصحف ... وما تغرسه الأفلام من أحلام فى عقول البسطاء ... كنا نقول له أن الطائر المغرد خارج سربه مـــصيره

الضياع .. لم يقتنع .. سافر وغاب أعواماً .. بعث لنا برسالة أو رسالتين .. ثم انقطعت أخباره ولم نعد نسمع عنه شيئاً ... منذ أيام التقيته كان غريبا ومحطما .. عانقني بود لم أعهده منه من قبل وقال: الطائر المغرد خارج السرب مصيره الضياع ... قلت له مواسياً: إلا إذا عاد والتحم بالسرب من جديد.

❖ ❖ ❖

{5}

كان صديقي فيه أفرغ كل أحزاني ... يحول لحظات ضعفى إلى قوة ... يواسيني .. ينتشلني من دوامات أكاد أغرق فيها .. في قلبه تكمن محبة هذا العالم وفى عينيه ينمو صفاء لاحدود له ... وعلى صدره تتكسر همومي .. وذات يوم جاءني يشكو لحظة حزن.. أحسست بثقل يجثم على صدري .. وأن قلبي يكاد ينفجر وإنني كنت قاسياً حين كنت أفرغ فى لحظات ضعفى أحزاني عليه .. وأيقنت كم كان جميلاً صديقى هذا ، وكم كان قلبه أكبر من كل مساحات الحزن.

حكاية من الماضي

كان يحبها يرسم على جدران زقاقنـــا أول حــرف مــن اسمها... يصنع من أوراق دفاترنا مراكب من شوق يرسلها مع انسياب مياه الساقية لها ... يحكى لنا كل يوم حكايـــة جديـــدة عنها... كل صباح يصحو قبلنا .. ينتظرها على ناصية الزقاق حتى تعبر تحتضن حقيبتها المدرسية .. يشير إليها من الــضفة الأخرى .. ترمقه بنظرات دافئة وشبح ابتسامة تترتــسم علـــى شفتيها .. يتطاير فرحا حتى يلحق بنا فى مشورانا اليومى إلـــى المدرسة ... قبل الجميع كان يخرج لينتظر عودتهـــا وليـــشاهد جمال الابتسامة الخجولة ... وعندما تحلّ العشية يلبس أجمل ما لديه ويمشّط شعره ويتوجّه إلى زقاقها يعبره أكثر من مرة حتى يشاهدها من خلف فرجة الباب وحين تتأكد من خلو الشارع .. تطل برأسها تلوح له ويلوح لها ... ويعود أدراجه إلينا .. يحكى عن ابتسامتها .. عن جمال شعرها عن وجهها وعن طولهـــا .. عن مفاتن جسدها ... كنا جميعا نعرفها ونراها كل يوم .. ومع ذلك كانت تطل أجمل من صدق كلماته .. كنا نحــسده أن لـــه حبيبة وأن له ابتسامة مسروقة تقابله كل صباح ... الغريب أن حكاياته عنها لم تنته رغم أنه لم يكلمهـــا يومـــا ولـــم يجلـــس

بجوارها... أو يمسك يداها أو يكتب لها حتى رسالة صغيرة.

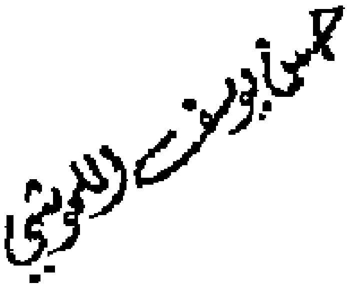
سنوات مرت وكل يوم هو ينتظر عند ناصية الزقاق وهى ترسل ابتسامتها مع طل الصباح الجميل .. ونحن نستمع إلـــى حكاويه وقصصه المثيرة .... .. وذات يوم جاءنا حزيناً فهى لم تعبر نحو مدرستها ولم ترسل ابتسامتها المسروقة ... وانتظـــر أيام وأيام وعلمنا أنها تزوجت ... حزن صديقى وسكتت كـــل حكايه وخبا البريق الجميل الذى كان يشع من عينيه.

سنوات مرت .. فرقتنا الدروب .. ومضى كل منا فـــى طريق.. حملتنا الدنيا ما نطيق وما لا نطيق .. وزحفت السنون علينا اطفأت فينا كثيرا من الأشياء، غمرتنا بتعبها .. بحزنها .. وظل صديقى يتذكرها من حين لآخر.

ومنذ أيام جاءت إليه في مقرّ عمله تطلب خدمة .. كادت صورتها أن تغيب من ذهنه لولا تلك الابتسامة الخجولة التـــي رسمتها عندما مدت يدها لتصافحه .. اندلقت عليه كـــل الأيـــام الخوالي .. عاد الزقاق والمدرسة والضفائر الجميلة ... عـــادت الساقية وعشيات الشوق ... كانت قد ترملت وتركها زوجها مع كومة من الأطفال في وسط المشوار بلا معـــين ... فـــلا هـــي أكملت دراستها .. ولاهي خرجت للعمل كباقي بنات جيلهـــا ..

كانت تسأل عن معاش زوجها وعن الإجراءات الطويلة .. أحسّ بجهلها ، وارتباكها وخوفها من القادم.

ربَّت على يديها بحنان وابتسامة تعلو وجهه ووعدها بتقديم كل المساعدة .... .. شعرت بدفء كلماته انفرج ثغرها عن ابتسامة جميلة .. قال في نفسه لم تزل ابتسامتها أجمل ما رأيت .. نهضت من كرسيها مودعة .. ضغط على يدها بشدة.. ابتسمت من جديد .. وهمست وهي تودعه "أتمنى أن أراك تمر من شارعنا القديم فقد عدت إلى بيتنا.



انهيـــار

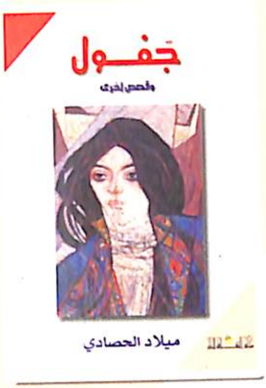
سمع اسمه يتردد من خلال مكبِّر الصوت مسبوقاً بكلمات من الإطراء والتبجيل ... اتجَّه نحو المنصة والحقيبة تتدلى من على كتفه... التصفيق الهادر والتهليل يـسيطر علـى القاعـة ويستمر طويلا... انحى يحي الجمهور أكثر من مرة .. ضـمَّ يديه إلى صدره.. وزع قبلاته شمالا ويمينا .. لوَّح بيديه إلـى المعجبين والمعجبات التي غصت بهم القاعة الكبيرة .. تـوالى تقديم الورود .. أحس بنشوة غريبة ... سيطر عليه إحساس من العظمة والزهو .. تأمل في وجوه الحاضرين الجالـسين فـي الصفوف الأمامية .. رأي وجوهًا جميلة يمنحها البشر نظـارة ولمعاناً .. ووجوهًا تكتسيها الجهامة والقتامـة .. اتجـه نحـو منصة الخطابة ... أخرج أوراقه من حقيبته .. طرحها علـى المنصة .. استبدل نظارته بأخرى من جيبـه.. مـسح العـرق المتصبب على جبينه .... حاول ترتيـب الأوراق .. ارتـشف جرعة من كأس الماء التي أمامه ... خيمَّ صمت على القاعة ، بحث عن الصفحة الأولى ، نظر نحـو الـسطر الأول .. بـدأ الكلام ... لم يخرج صوته ، التصق لـسانه بحلقـه .. أحـسَّ بجفاف في الحلق .. سكب جرعة من الماء إلى جوفه وحـاول

ترطيب لسانه وشفتيه ،كرر محاولة الكلام ضاع صوته ولم تخرج كلماته ... الصمت مازال يسكن القاعة التي تنتظر بشوق بعض من إبداعاته ، أحسَّ بارتباك شديد ، حاول أن يسيطر على نفسه ، تكلم من جديد ، لم يخرج صوته وكلماته مازالت غائبة ... سرت همهمات في القاعة وارتفعت الأسئلة ، احتج الجالسون في الصفوف الخلفية الذين لم يحسوا بما يحدث بأنهم لم يسمعوا شيئاً ، أحسَّ بوهن شديد وارتعاشة في قدميه ، اتكأ على منصة الخطابة لتفادي السقوط لكنه انهار على الأرض فاقد الوعي.

صوت ارتطام شديد داخل القاعة أخرجه من سرحانه ... نظر حوله كانت القاعة والمنصة خاليتين ومظلمتين .. والغبار يحيط به من كل جانب والكراسي مهملة ومكسور بعضها والستائر ممزقة ، ولم يكن معه في القاعة ، إلا بعض من عمال صيانة الكهرباء.

المحتويات

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
دار قباء الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
جمهورية مصر العربية
16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315
E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



■ يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام